محمد كامل حسين

الوادى المقدس



الوادى المقدس

يتناول المفكر الكبير د.محمد كامل حسين فى هذا الكتاب المهم فكرة أن أساس الدين سيكولوچى وأساس الأخلاق فسيولوچى. ويسلط الضوء على مفاهيم قل أن يتناولها العلم مثل الكبح والكبت والحرمان والظلم وحرية الفكر والتطهر.

إنه كتاب قيم ونادر يستحق أن يقرأه كل مهتم بالإنسان ومشكلاته.

كان د.محمد كامل حسين (١٩٠١ ـ ١٩٧٧) جراحًا بارعًا وأستاذًا نابها، تفوق فى الطب فكان يُعَدّ رائد طب العظام فى مصر، ونال جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٦٧ بعد أن نال جائزة الدولة فى الأدب عام ١٩٧٥، فأصبح بذلك أول مصرى يحوز جائزتى الأدب والعلوم. وله عدة كتب تتناول اللغة العربية والأدب والنقد والطب والعلوم، ومن أهمها «الوادى المقدس» (دار الشروق ٢٠٠٧) «وقوم لا يتطهرون» (دار الشروق ٢٠٠٤) «والذكر الحكيم» «واللغة العربية المعاصرة» و«التحليل البيولوچى للتاريخ» و «وحدة المعرفة».



دار الشروق
www.shorouk.com

الوادى المقدس

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٧
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد كامل حسين



دار الشروق

محتـويات

الوادي المقدس

١

الوادي المقدس هو البقعة من الأرض، وهو القطعة من الزمن، وهو الحال النفسية التي تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء، فوق ضرورات الحياة، بل فوق حدود العقل.

هو حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيمانًا قويّا خالصًا لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف. هو حيث يملك عليك هذا الإيمان عقلك كله وإرادتك كلها. هو حيث تقف خاشعًا في غير رهبة، خاضعًا طواعية للمُثل التي ترضاها لنفسك وإن لم يشهد عملك رقيب، لا يحملك على مشقة ذلك إلا الإيمان وحده، لا ترجو على ما تعمل جزاء ولا تخشى عقابًا.

هو حيث يحتوي قلبك حب عميق خال من كل غل أو حقد، لا يعتريك فيه قلق أو ندم، ولا يصيبك فيه خيبة أو يأس.

وهو حيث تهتدي إلى الحكمة والتفكير المستقيم. حيث تطلع على حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة. وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا تتردّى فى ظلام الجهل أو ضباب الخطأ.

وهو حيث آمالك كلها خير، وأحلامك كلها جميلة لا يقع الشر منك ولا يقع عليك. حيث تكون الطبيعة وجسمك وعقلك ونفسك متوافقة توافقًا موسيقيًّا تكمل به السعادة الإنسانية.

وهو حيث تسمع صوت ضميرك صريحًا واضحًا آمرًا بالخير في غير لبس، هاديًا إلى الحق في غير تردد، كأنه صوت الله.

الوادي المقدس، مملكة السماء، الجنة: أمور ثابتة في النفس الإنسانية أصولها الإيمان والخير والحكمة، وميادينها الدين والحب والعلم.

* * *

في الوادي المقدس تتحقق لك أحلام كلها خير:

يخيل إليك فيه أن القوى الطبيعية زال عنها شرها كله، ولم يبق منها إلا خيرها. فالنار تضيء ولا تحرق، والفراشة تشتاق إلى اللهب فتقع عليه ولا يصيبها منه أذى.

ويخيل إليك فيه أنك بمعزل عن الزمن وما يحدثه فى أمور الناس من فساد. عالم يشمل الخير فيه كل شيء. وفيه يتحقق أمل كل مخلوق؛ صفات ليست غريبة على جنة الفردوس.

الوادي المقدس يكون حيث تريد وحين تريد، لا يحده مكان ولا زمان، لا يحده تعريف ولا وصف بعينه؛ فحيثما تطهرت نفسك، وحيثما أحببت حبّا خالصًا، وحيثما عملت عملا جميلاً، فثمّ واديك المقدس.

* * *

واديك المقدس هو المأوى الذي يقيك عواصف الشر، هو كمال سعادتك إن كنت سعيدًا، وهو أملك الوحيد إن كنت شقيّا، ولا غنى لك عنه في حالتي النعيم والبؤس، هو في النعيم هداية وفي البؤس عزاء وأمل.

فإن كنت ممن يعملون الخير عفواً ويتجنبون الشر عرضًا، دون إيمان خالص أو حب عميق أو حكمة واضحة، فإن الخير الذي تعمله لا يجلب لك الرضا الذي تطمئن به النفس الإنسانية، فهو خير أبتر؛ لأنه في غير الوادي المقدس.

والوادي المقدس هو جنتك التي تتقى بها ظلم الظالمين، فيه ترى نفسك أعظم خلقًا وأعلى قدراً ممن ظلموك، ويكفيك هذا السمو مرضاة لك دون أن تثور فيك عاطفة سقيمة مرذولة ـ كالانتقام أو الثأر من الظالمين. والظلم والانتقام سلسلة من الشر متصلة مفرغة لا فكاك منها.

في الوادي المقدس ينظر المتطهرون إلى غير المتطهرين من الظالمين مشفقين عليهم، كما ينظر أهل الجنة إلى أهل النار.

* * *

والنظام القائم بين الناس حتى اليوم فيه مرتفعات وسهول ووديان، وفوق المرتفعات أقزام هم دونك قدرًا، وهم أقل منك علمًا وحكمة وخلقًا؛ ولكنهم يتحكمون في أمور حياتك بقوة ارتفاعهم عنك، فهم أعلى منك وإن لم يكونوا أطول قامة، ولا أعظم نفسًا.

وفي الوديان قوم يرون أنك منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك.

أما في الوادي المقدس فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير، يسمو فيه المظلوم ـ وإن كان متواضعًا ـ فوق الظالم، وإن بلغ السماء عظمة وشغل الناس بمجده وجبروته، ذلك أن الظالم لا يستطيع أن يستمتع بأمن الوادي المقدس ما دام ظالمًا.

فإذا رأيت نفسك في قبضة شر لا تستطيع له ردًّا، وإذا اعتراك اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة، وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة في النظم التي لا تستطيع تغييرها، إذا حلّ بك هذا الظلم فليس لك إلى النجاة من سبيل، إلا أن تأوى إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص من اليأس والقلق.

والويل لك حينذاك إذا كانت حياتك خالية من الإيمان أو الخير أو الحب أو الحكمة. فإذا كنت لم تعرف الوادي المقدس، ولم تنعم بأمنه، ولم تستظل بظله الوارف، وإذا لم يكن في حياتك عمل جميل ترضى عنه فما الذي ينجيك من الظلم الذي لحقك، وماذا يخفف عنك مرارة اليأس وقسوة الخيبة إذا حلّ بك الظلم وتنكرت لك الدنيا ولم تكن قد عرفت الوادي المقدس؟

وإذا لم يكن في حياتك ملجأ من الظلم الذي يحل بك فإن حياتك تصبح عليك عبئًا ثقيلاً، وكأنها كلها عبث وعناء، وذلك هو غاية البؤس الإنساني.

* * *

ولعلك - إن لم يكن وقع عليك ظلم - أن يكون نصيبك من الحياة نصيب أكثر الناس: نجاح بعيد عمّا تؤهله لك كفايتك، وبعيد جدّا عن آمالك. والفرجة بين ما تحقق لك في حياتك وما كنت تؤمل هي أول الضجر والغضب، ثم يشتد ذلك حتى يصبح ألمًا وحنقًا ويأسًا.

وقد يشتد حنقك حتى يحملك على العدوان. ويقاس قلق الناس بهذه الفرجة ومسافتها - ولعله يقاس بمربع هذه المسافة كما يقول الطبيعيون - ولا يملأ هذه الفرجة فيعيد إليك اطمئنانك إلا إيمان عميق أو حب خالص أو حكمة صادقة.

ولعلك أن تكون من القلة الذين أوتوا من الحياة حظّا يفوق ما كانوا يأملون، ترى نفسك فوق سارية من المجد كلما علت زاد خطر سقوطك منها، ما لم تتعهدها بالتقوية والاتزان. ولا يجعل من هذه السارية القلقة هرمًا ثابتًا مستقرّا أصله إلا أن تحيطها بخير كثير، وأن تحميها من الخبيث أن ينخر في ساقها فتقع وأنت عنها لاهٍ.

* * *

ولا يغرنك ما يتحدث به بعض كبار المفكرين عن «الرجل الأعلى» الذي يرغم الناس على الخضوع لإرادته الغالبة، ولو كانت شرّاً مطلقًا، والذي كل حياته تعبير عن شدة الأسر وقوة البطش. يتغلب على الخير والشر جميعًا في سبيل تحقيق أغراضه، فلا تقف أمامه قوة ولا يردعه ضمير، ولا يكبح طغيانه معنى من المعاني الإنسانية البحتة؛ صفات هي جماع الفضائل الحيوية، تحقق من النجاح والعظمة والمجد الشيء الكثير، وتبهر الناس وتعجب عشاق الأبطال لبقية فيهم من أثر الطفولة.

ولكن الرجل الأعلى - كما صوره لنا بعض الفلاسفة - لا يزيده المجد إلا ظمأ، كشارب الماء الملح لا يرويه الماء بل يزيده عطشًا. وليس في صفاته شيء مما يرفع الإنسان عن الحيوان، حياته خالية أبدًا من التطهر لا يعنيه منه شيء، وقد يرضيه إعجاب الذين يستظلون بظله؛ ولكنه في قرارة نفسه دائم القلق، بعيد كل البعد عن الرضا الذي تصبو إليه النفس السوية بفطرتها، وكلما امتد به النجاح زاد قلقًا واضطرابًا.

وليس النجاح في هذه الدنيا مانعًا من التطهر، وليس التطهر عائقًا عن بلوغ النجاح الدنيوي، ولكن الجمع بينهما عسير، وإذا لم يكن لك مفر من الاختيار بين النجاح والتطهر فخير لك أن تختار التطهر، فهو أبقى على الزمن وأرضى للنفس إذا كانت سبيل النجاح محفوفة بما هو أقرب إلى الخبيث والشر منه إلى الطيب والخير.

* * *

وقد تظن أنك في غير حاجة إلى هذا كله، وأن الحياة تكون أقل إرهاقًا إذا لم تحمل نفسك على التطهر وما فيه من عناء وحرمان، وقد ترى أنك في غنى عن الرياضة النفسية التي لا بد منها لمن يسعون إلى الوادي المقدس، وقد ترى مخلصًا أن التطهر أمر غير طبيعي على كل حال.

وهذا الظن خطأ يقع فيه من يحسبون أن الحياة الحيوانية أصل يمكن الاكتفاء به، وأن التطهر طارئ عليها. والواقع أن النزعة إلى التطهر طبيعية في الإنسان، بل هي عنوان إنسانيته، ولا تستطيع نفس إنسانية أن تطمئن ما لم تحقق نزعتها الفطرية إلى التطهر.

والذين يتجاهلون قوة هذه النزعة، والذين منعتهم عوائق عن تحقيقها، يدفعون ثمن ذلك غاليًا جدًا حين يصيبهم شيء من القلق أو الشك، وقد لا يشعرون بهذا النقص حتى يصيبهم من أمور الحياة ما يذكّرهم به.

ومع ذلك فلا يؤيسنّك من نفسك أنك لا تستطيع أن تجعل حياتك كلها موفقة ميسرة للخير، وأنك لا تستطيع أن تتغلب فى كل وقت على ما فيك من ضعف، وعلى ما في نظم الحياة حولك من سوء لا تقدر على إصلاحه، هذا اليأس خطأ، إذ ليس عليك أن تقيم في الوادي المقدس حياتك كلها، وليس عليك ألا يقع الشر منك أبدًا؛ إنما يقاس الخير فيك بما تحققه من ترفع عن ضرورات القوانين الحيوية الغالبة حين تستطيع أن تترفع عنها، بل

قد يقاس الخير فيك بما تبذله من جهد في هذا السبيل ، وإن لم تبلغ الغاية التي تطمح إليها .

* * *

ولا يؤيسنك من الناس ما ترى فيهم من تهافت وكفاح وتقاتل في سبيل الغلبة والنصر ، ولا يؤيسنك من الطبيعة البشرية أن الناس لا يأبون أن يؤذي بعضهم بعضًا في سبيل النجاح ، ولا يروعهم ما يكون في ذلك من قسوة وعنف وغلظة . وستجد من الناس من يقول إن الشر من طبع الإنسان ، وأنه لا يدفعه إلا شر مثله أو أقوى . هذا التوهم أصل من أصول الشر ، ألست تعلم من نفسك أنك تود الخير وترغب في الإحسان وتصبو إلى العمل الكريم ؛ وأنه لا يدعوك إلى تجنب هذه الطريق السوية إلا ما جبل عليه غيرك من الرغبة في الاعتداء على ما هو حق لك؟ فلمَ لا تظن أن في الناس من حب الخير لك مثل ما فيك من حب الَخير لهم ، لولا أنهم يشكون فيك كما تشك فيهم؟ أولَيس الشر سوء ظن متبادل؟ وقد تكون له أسباب عميقة ومصادر قوية ، ولكنه ليس إلا سوء ظن على كل حال .

٢

الشر ليس من طبع الإنسان! وليس في الشر شيء يجذبنا إليه. بل هو فساد في العلاقات بين الناس، وعليك ألا تفسد أنت هذه العلاقات، ولتبدأ بنفسك فتقيم في ضميرك اطمئنانًا يزيل القلق والشك، فيتحقق لك بذلك السلام بينك وبين نفسك، وهو أول خطوات السلام بينك وبين الناس.

ولا يفتنَّ في عضدك أن الناس قد لا يعبئون بك ولا بالخير الذي تستطيعه؛ ولا يحملنك ذلك على أن تحيد عن طريق الخير. فإنه لا يعفيك شيء من أن تبدأ بنفسك فتطهرها قبل أن يدهمك الناس بشرورهم.

واعلم أن جهادك في سبيل التطهر قد يبدو لك ضئيلاً من حيث أثره في تطهير غيرك، إلا أنه عظيم الخطر جدّا من حيث أثره فيك، فهو الذي يرفع من قدرك عند نفسك، ويرفع من قدر الخير عندك، وكل خير تعمله، وكل شر تجتنبه، مهما يكن صغيراً، هو جزء من جهاد الجنس الإنساني كافة، وبه يتحقق أمل الإنسانية فيك.

وأملك في الإنسانية يبدأ بتحقيقك أملها فيك.

وسبيلك إلى هذا كله أن تتطهر فتبلغ الوادي المقدس، فهو مملكة السماء على هذه الأرض، وهو الجنة في هذه الدنيا.

٣

ويحسن بك أن تتبين حينًا بعد حين أين تقع حياتك من واديك المقدس، وهل تزيدك الأيام منه قربًا، أو أنك قد وليته ظهرك فأنت منه أبدًا بعيد.

وحياتك بالطبع أعظم ما يعنيك، ولكنها فوق ذلك جماع القوى التي عملت في الإنسانية منذ الأزل. وليست الإنسانية ما عمل الناس وما يعملون مجتمعين، وإنما الإنسانية تتبلور في حياة كل فرد، وفي حياتك أنت خاصة، والعوامل التي تطهر بها الناس قديمًا تصلح أن تتطهر بها لو هيأت لنفسك سبيل الطهر.

وليس الطهر معنى خالصًا، ولا هو عملاً خالصًا. وإنما هو معنى في النفس يتمثل أعمالاً. وهو ما تحمله الأعمال من مغزى تتأثر به النفس.

وأنت تبني حياتك عملاً فوق عمل، كما تبني القصور حجراً فوق حجر.

وقد تشبه أعمال الناس بعضها بعضًا ثم تكون الحياة مختلفات، كما تتشابه الحجارة وتكون القصور متباينة عظمة وجمالاً.

وقد تكون الحجارة كلها سوية قوية، حتى إذا ارتفع البناء وخيِّل إليك أنه يصلح مأوى تتقي به غوائل الجو انهار من حولك.

وأنت لا تدري كيف يتهدم بناء كل عناصره قوية متينة.

كذلك قد تكون أعمالك طيبة ناجحة، حتى إذا امتد بك العمر ورجوت أن تكون حياتك جنة تتقي بها قرّ اليأس وحمارّة الندم انقضت من حولك وأنت تنظر إليها حزينًا أسفًا.

ذلك أن العناصر القوية لا يقوى بها البناء إلا أن يتم على نحو ترضاه القوانين الطبيعية.

والأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة، إلا أن تكون الحياة صادقة، والصدق هو أن تتسق الحياة وقوانين النفس البشرية. وقانون النفس البشرية الذي تفسد كل حياة لا تقوم عليه هو قانون التطهر. وإذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوّم عوجها ما تكون قد حققت من أعمال طيبة.

وليس في ذلك ما يدعو إلى اليأس، فالطّهر لا يفسده بعض الشر حين تعمله عرضًا أو حين تعمله مرغمًا. فكما يكون من الحجارة ما هو ضعيف معوج ويكون البناء مع ذلك قويًّا، كذلك قد ترتكب في حال الغضب أو الشدة ما لا ترضى عنه نفسك في حال الهدوء والطمأنينة، ثم تكون حياتك في آخر الأمر جميلة طيبة إذا كان قوامها الطهر.

* * *

وإذا أردت أن تكون حياتك طيبة صادقة ـ ولا أحسبك عن ذلك راغبًا ـ فاعلم أن الحياة الصادقة تقوم على السلم:

والسلم يكون بينك وبين نفسك ويحققه الإيمان

ويكون بينك وبين الأقربين ويحققه الحب

ويكون بينك وبين العالمين ويحققه الخير

* * *

ولا تتم الحياة الصادقة إلا إذا اجتمع لها كل ذلك على هذا النحو وهذا الترتيب.

فإذا استقبلت الحياة فابدأ بتحقيق السلم بينك وبين نفسك تروضها عن الإيمان، ثم اعمل على تحقيق الحب بينك وبين الأقربين، فإن بقى فيك فضل من جهد فاعمل على تحقيق الخير للآخرين.

الإيمان والحب والخير تؤدي إلى الطهر كما قد تكون نتيجة له. وفي مجال النفس تختلط الوسائل والغايات، وتختلف صورة التطهر في كل نفس، بمقدار ما يكون في طهرها من إيمان أو حب أو خير.

وسيتبين لك حين تقارب الحياة غروبها أن عمل الخير يرهق قواك، وأن حب الأقربين لك وحبك إياهم يعتريه بعض الضعف؛ عند ذلك لا يرضيك عن نفسك إلا أن تشعر أنك فوق الناس والزمن بالطهر الذي حققه لك إيمانك. هذا وحده يخفف عنك مرارة العجز وإعراض الأقربين.

فالتطهر أول واجبات حياتك وآخر عزاء فيها.

ولعلك تود أن تعرف أي هذه الأمور أقوى في تطهير النفس وأقدر على هدايتها.

والواقع أن الإيمان هو وحده الذي لا يضل به أحد، فإن ضل به بعض الناس فليس ذلك من أثر الإيمان وإنما يأتيهم الخطأ من سوء فهمهم لمغزى ما يعملون، يحسبونه من الإيمان وهو إلى الشر أقرب.

وقد تصلح الحياة إذا تطهرت بالإيمان وحده، وهي لا تطيب كثيراً إذا قامت على الحب وحده أو على الخير وحده، ما لم يحمل الحب أو الخير معنى التطهر، وقد لا يحملان منه شيئًا كثيراً.

* * *

وقد يكون حبك الأقربين مصدره التفاخر والعزة، بل قد تكون الأثرة من دوافعه. هذا هو الحب الذي لا تتطهر به النفوس؛ والحب لا يتطهر به الناس إلا أن تعلق به صفات الولاء والتضحية والإخلاص مما تطرب له قلوب المحبين.

وقد يكون من دوافع الخير حب السيطرة والرغبة في الغنى أو المجد أو غير ذلك مما يفتن به الناس، عند ذلك لا يكون في عمل الخير طهر، بل قد تؤدي هذه الدوافع إلى الانغماس آخر الأمر في حمأة الشر.

ويدلك على أن الإيمان يكفي وحده لتطهر النفوس ما تراه من طهر الأتقياء والمنقطعين للعبادة، فالطهر فيهم أكثر منه في كبار المحبين أو كبار الحكماء. وقد تظن وأنت في خضم الدنيا ومعترك الحياة تسأل نفسك كل حين أي الطرق أهدى إلى الحق ـ قد تظن أن الزهد يقي كبار الأتقياء أن يقعوا في الخطيئة، وأن محجتهم واضحة وطهرهم هين، وقد ترى أن حياتهم ضيقة على ما فيها من طمأنينة، ضعيفة على ما فيها من سلم، وقد ترى أن التطهر فيهم عمل لا يفيد منه أحد سواهم.

في هذا الرأي ظلم للأتقياء والمنقطعين للعبادة، ذلك أنهم إذ يبنون حياتهم على الطهر لا يريدون إلا السلم النفسي، وهم بالغوه عن هذه الطريق. وغيرهم ينعم بحياة واسعة صاخبة ولكنها حياة قلقة تقوم على أسس واهية، ولا يعيب حياة الزهد هذه ما فيها من ضيق، فإنه لا يفوقهم طيب حياة إلا من جمع إلى التطهر حبّا عميقًا وخيرًا شاملاً. وهؤلاء قلة في التاريخ كله، يعرفهم الناس جميعًا، ولا يستطيع أحد أن يحتذيهم إلا أن يؤتى قوة خارقة وهديًا من الله عظيمًا.

* * *

وأكثر الناس يظنون أن حبهم الأقربين يطهر نفوسهم بالقدر الذي ليس لهم وراءه مطمع، ولكن هذا الحب لا يطهر النفس إذا كان الدافع إليه بيولوجيًا، كما تحب الطير إناثها وصغارها؛ أو كان الدافع إليه اجتماعيًا، حيث يتقارب الناس ويتحابون رغبة في بلوغ مزايا لا تتحقق بغير هذا التساند.

وإذا قصر جهدك عن التطهر بالإيمان والحب، وظننت أنك تستطيع أن تتطهر بالخير وحده، فسيكون عملك الخير عملاً أبتر، يرضي نفسك رضاء ظاهرًا ولكنك ستكون في أعماق نفسك قلقًا.

وغاية الحياة أن تطمئن نفسك إلى سلم شامل، وليس شيء بعينه يحقق هذا السلم النفسي، وليس شيء بعينه يحرمك نعيمه، ولتكن غايتك أن تبلغ الوادي المقدس الخاص بنفسك، وقد تبلغه وأنت تسيء إذا استقطبت الهدى. وقد لا تبلغه وأنت محسن إذا استدبرت الهدى، ومقياس الخير على ما ترى نفسيّ محض ولا يتعلق أولاً وآخرًا إلا بك.

* * *

وإنما يضطرب الناس حين يظنون أن عملاً بعينه ذنب أو خطيئة أو شر، وأن أعمالاً بعينها فضيلة وخير، ومن هنا اختلفت القيم عند الناس، منهم مَن شك في قيم الأعمال يرى أنها مواقف طارئة عارضة تؤدي أسبابها إلى نتائجها وأنه ليس شيء أحق أن يتبع، إلا أن يكون محققًا لأغراض الحياة كما نراها في غير الإنسان من الكائنات، يسمون ذلك طبيعيًا وما عداه عرفًا لا أصل له من الطبع، ينكرون بذلك مغزى الأعمال.

على أن الإنسان، وقد أوتي نفسًا تستطيع أن تستشف المغزى الذي تحمله الأعمال، مضطر ألا يغفل هذا المغزى، والأعمال

التي تعملها تدل على نظام نفسك، ثم هي ترتد بعد ذلك إليك، فإن أحدثت في نفسك سروراً ورضا فذلك هو الخير، وإن كان أثرها فيك به بعض القلق والاضطراب والشك فذلك هو الإثم بالنسبة إليك، ولكل إنسان مزاجه الخاص يحدد له ما هو المعروف وما هو المنكر.

٤

والخطيئة على ذلك ليست نوعية، وليس لنا أن نحددها بأعمال بعينها، والعبرة في الخطيئة تتعلق بالأثر السيئ الذي يتركه عمل ما في نفس فاعله.

ولما كانت الطبيعة البشرية متشابهة كانت هناك أعمال تؤثر أثراً سيئًا في أكثر الناس، ويكاد يكون هناك ما يشبه الإجماع على أن بعض الأمور سلم على النفس وبعضها حرب عليها، ويسمى الناس ذلك حلالاً وحرامًا.

ولعلك أن تكون كأكثر الملحدين الذي لا يرضون أن يخضعوا للأوامر والنواهي التي ورثناها عن الأقدمين، والتي يتمثل فيها الطهر كما فهمه الأولون؛ ولعلك أن تكون من الذين يودون أن يجدوا أصلا ثابتًا للحق والباطل والخبيث والطيب أوضح من الأصول التي اقتنع بها أسلافنا قديمًا. فإن هذه الأصول لم تعد تحدث في نفوسنا الأثر العميق الذي كانت تحدثه في الناس من قبل، حين كان أصل الفضيلة الطاعة وأصل الخطيئة العصيان.

وضعف أثر هذه الأمور فينا يجعل تطهرنا بها ضعيفًا بعد أن كان عند أجدادنا قويًا غاية القوة.

* * *

وإذا كان عليك عسيراً أن تخضع للفضيلة من حيث هي أمر أعلى، وإذا لم تطمئن نفسك اطمئنانًا تامًا إلى تجنب الخطيئة من حيث إن النهي عنها أمر أعلى، فلك ذلك؛ لأنك إن لم تطمئن إلى شيء فتطهرك به قليل، ويكون حينذاك سبيلك إلى التطهر أن تعلم أن في نفسك جهازاً خاصًا يتأثر ببعض الأمور أثراً فيه مرضاة لها، وأن أموراً أخرى تسبب لها الأذى والقلق، وأن واجبك لنفسك أن تتبع الأولى وتأبى الأخرى، وسيدهشك أن تجد توافقًا يكاد يكون تامًا بين الأمور التي تراها معروفًا والأمور التي تراها منكراً، وبين ما أمر به الله وما نهاك عنه.

ولتعلم أن التطهر طبيعي في النفس البشرية، أصله استقطاب فطري فيها، وغايته الوادي المقدس، وأن ذلك ليس بعيداً عن القوانين الكونية، ولعلنا نستطيع أن نفهمه فهمًا أوضح إذا شرحناه قياسًا على تلك القوانين التي نعرف عنها يقينًا أكثر مما نعرف عن التطهر.

٥

ولا مفر لك من إقامة السلم بينك وبين نفسك على نحو ما قبل أن يستقيم الأمر بينك وبين الناس، ولا تخدعن نفسك إذا أصابك

ما تكره فتقول هذا من ظلم الحياة وقسوة الزمن وتحكم القدر وتخبط الحظ : عبارات فيها من الغموض ما يدعو إلى الحيرة والقلق، ولو عدل الناس عن المجهول إلى المعلوم لاستقام تفكيرهم في هذا الأمر، فالحياة والزمن والقدر والحظ ليست إلا تعبيراً عن العلاقات بين الناس، وأولى بالمظلوم والمحروم وذي الجد العاثر أن يقول ظلمنى الناس وحرمني الناس وحال الناس بيني وبين حقي، بذلك يعرف الظالم، وقد لا يقوم بهذا الفهم عدل ولا يمتنع ظلم ولا يتغير نظام، ولكنه فهم يزيل الغموض ويحدد المسئول.

هذا الغموض في علاقات الناس بعضهم ببعض أصل من أصول الشر بينهم، وقد تظن أن ذلك من طبع الجماعات، وأن أحداً لا يستطيع وحده أن يغيِّر من هذه النزعة في الناس حين يجتمعون.

والواقع أن أكثر الشر يحمل عبئه في آخر الأمر رجل واحد يستطيع أن يتجنبه، فالقنبلة الذرية ـ وهي أقصى ما عرف من أساليب تحقيق الشر ـ لا تلقي بنفسها على الناس، إنما يلقيها عليهم رجل له ضمير ونفس وعقل، وله وحده في آخر الأمر القول الفصل : أيلقيها على الأبرياء أم يرمي بها في البحر يدفعه إلى هذا أو ذاك مبادئ يعتنقها، وآراء يدين بها، ونظم يخضع لها. والشر الكامن في القوة إنساني محض، بل الشر كله من عمل الإنسان لأنه يستطيع أن يتجنبه، وهو أوضح ما يكون حين يعمل الناس مجتمعين.

فإذا تطهرت وتحقق لك السلم بينك وبين نفسك فلتفرغ بعد ذلك إلى تحقيق السلم بينك وبين الجماعة التي تنتمي إليها أو بالأحرى بينك وبين الجماعات التي تنتسب إليها في مختلف المناسبات.

وكثير من الناس يرون أن التطهر النفسى ليس ذا أثر بعيد فى تحقيق السلم بين المرء وجماعته، وأن الإنسان ـ وهو اجتماعي بطبعه كما يقولون ـ يكفيه أن تقوم حياته على تحقيق هذا السلم، وأكثرهم لا يعنون بالتطهر وإنما يعنون بالعلاقات القائمة بينهم وبين جيرانهم، وهم يصيبون برأيهم هذا نجاحًا كبيرًا بين أقرانهم، يسعدهم أن يتحدث عنهم الأقربون حديثًا حسنًا. ويشعرون آنذاك بالطمأنينة والسلم، وإن لم يصيبوا حظًا كبيرًا من التطهر.

ولكن الفساد يدب في هذه العلاقات عاجلاً أو آجلاً، وتعصف بها عواصف قوية حينًا وضعيفة أحيانًا. وقد يقصر أمد هذا الفساد أو يطول، فإذا أصابك شيء من ذلك فأنى لك حينذاك أن تتقي هذه العواصف. وكيف يتحقق لك سلم ما إذا فقدت السلم الاجتماعي ولم تجد في قرارة نفسك سلمًا داخليًا عميقًا ينجيك من مرارة الإخفاق وقسوة اليأس؟

ويعينك على تحقيق السلم بينك وبين الناس أن تؤمن أن المتطهرين إخوة على اختلاف مللهم ونحَلهم، وأن التفاهم بينهم قريب، وقد تختلف مذاهب التفكيرَ وتتباين السبل التي يبلغ الناس بها التطهر، ولكن المتطهرين جميعًا سواء حين يبلغون

غايته، وهي الوادي المقدس حيث يجدون أنفسهم في صعيد واحد.

والسبل إلى الوادي المقدس متعددة، وعوامل التطهر كثيرة وقد تكون متباينة. وليست هناك سبيل بعينها لا يكون التطهر إلا بها، وإنما يختار كل إنسان أهدى الطرق إلى التطهر حسب ما ركب فيه من قدرة على التأثر بالعوامل المطهرة، وما تطهر به نفسك قد لا يطهر به أقرب الناس إليك وأشبههم بك.

* * *

العوامل المطهرة هي الإيمان والحب والحكمة، ومن الخطأ أن نظن أن كلاً من هذه العوامل يستطيع أن يطهر كل نفس، فالذين ليس من طبعهم الإيمان لا يتطهرون به، وقد يتطهرون بالحب، ومن ليس من طبعهم أن يتأثروا بهذا أو ذاك قد يتطهرون بالحكمة والعقل، ومن العبث أن يحاول الإنسان أن يتطهر بما ليس من طبعه أن يتأثر به.

ومن الخطأ أن نحدد للناس طريق التطهر نرغمهم عليه وإن خالف طباعهم، ومن الخطأ أن نحدد للناس صوراً بعينها للتطهر، فالناس يتطهرون، كل على شاكلته بالإيمان أو الحب أو الحكمة.

وخير ما في الإيمان الإيمان نفسه مهما يكن ما تؤمن به

وخير ما فى الحب الحب نفسه مهما يكن ما تحب أو من تحب

وخير ما في المعرفة المعرفة نفسها مهما يكن موضوع ما تعرف

وكل ما تطهرت به نفسك يكون حقّاً بالنسبة لك، وإن اختلفت طريقك عن طريق غيرك، فغاية المتطهرين جميعًا الوادي المقدس حيث يتحقق لهم الطمأنينة والرضى النفسي.

٦

وليس الخير الذي تصبو إليه نفوس الناس بطبعها شيئًا محددًا، وليس كل ما عداه شرّاً، فالخير هو كل ما ترضى عنه نفسك رضاءً تامّاً حين لا يؤثر فيها عامل خارجي من أي نوع يكون. والشر هو ما تعمله ثم تلتمس عذراً عنه فتقول هذا عمل لم أكن لأعمله لولا كذا وكذا.

هذا العمل شر من غير شك مهما يكن العذر الذي تلتمسه تبريراً له، وقد تستتر وراء مبادئ سامية جدّاً، وقد تستتر وراء الدين نفسه، وقد تستتر وراء الفضائل المعروفة كالشجاعة والتضحية، فترتكب في سبيلها ما لا ترضى عنه في قرارة نفسك، هذا هو الشر لا ريب فيه.

* * *

وأكبر المذاهب التي اهتدى بها الناس إلى الخير، وأسهلها فهمًا لدى الكثرة الغالبة من الناس، وأوضحها محجة وأقربها منا لا، وأدناها إلى النجاح هو الدين، وقوامه الإيمان بالغيب، وهو الإيمان بما لا يقوم عليه برهان حسيّ من رؤية أو سمع. كذلك

فضل الخير على الشر فضل لا يقوم عليه برهان حسي دائمًا، لهذا كان الخير من معدن الإيمان بالغيب، وليس عجيبًا أن يكون الوئام بينهما تامًا واضحًا.

أما الذين لا يستطيعون بطبيعة تفكيرهم أن يطمئنوا إلى الإيمان بالغيب، ولا أن يتطهروا به فأمامهم سبل أخرى وعرة المسالك ضيقة الدروب غير مأمونة النجاح، ولكنها تؤدي ببعض الناس إلى الخير على كل حال، ولها أهلها الذين لا يهتدون إلا بها.

* * *

وأشهر هذه الطرق طريق الحب والجمال، فقد تكون ممن يحبون الناس حبًا مباشرًا، وقد تكون ممن يستهويهم الجمال الخلقي، تأبى الشر لقبحه، وترغب في الخير لجماله، تأبى أن تؤذي الناس لأن ذلك لا يليق بك، تترفع عن أن تؤذي أحدًا لا لشيء إلا لأنه إنسان مثلك، وأن هذا العدوان أشبه بعمل الدواب منه بعمل الإنسان المرهف الحس.

* * *

وقد تكون ممن لا يتطهرون إلا بما يتفق والعقل، فيكون طريقك إلى الخير الحكمة وصواب الرأي والتفكير المستقيم. هذه أضيق الطرق وأصعبها، وهي طريق أفاضل الوثنيين وبعض المفكرين المحدثين، وهم قلة وإن كانت ممتازة، وما يطهرها لا يصلح لأكثر الناس ولم يهتد به إلا الأقلون.

أما العلم، وهو القوة التي أخذت تحدث في حياة الناس أكبر الأثر في عصرنا هذا، فلم يهتد به أحد بعد ولم يتطهر به إنسان، ولكني لا أشك أننا سنجد بعد أمد قد يطول أو يقصر منفذاً إلى الخير عن طريق العلم، وليس ذلك مستحيلاً. وهو أمل من آمال الإنسانية علينا أن نسعى لتحقيقه. ذلك أن العلم دائم النمو، وهو بطبيعته مما يستطيع الناس أن يجمعوا عليه. كل ذلك يجعله قوة لا يمكن إغفالها، قوة إذا استخدمت في السعي إلى الخير فنجاحها مكفول، وهذا النجاح حين نبلغه سيكون نجاحًا عالميّا.

* * *

وكان جديراً بالأديان الكبرى، وهي التي ثبت حقها بانتشارها ودوامها وقوة أثرها في المؤمنين، كان جديراً بها ألا تختلف اختلافًا كبيراً، فكلها تصدر عن أصل واحد هو الإيمان بالغيب، وتؤدي إلى غاية واحدة هي بلوغ الوادي المقدس، وسبيلها إلى ذلك واحد هو التطهر. ولكنها اختلفت مع ذلك اختلافًا شديداً وظن أهل كل دين أنهم وحدهم على حق وأن غيرهم على ضلال.

والواقع أن أمور العقيدة ليس فيها حق وباطل، فكل ما تؤمن به إيمانًا قويّا فعالاً مطهراً يبلغ بك الوادي المقدس هو الحق بالنسبة لك، وليس هناك حق منفصل عن الإيمان به يمكن البرهان عليه برهانا حسيّا مستقلاً عن أثره في النفس. والإيمان جزء لا يتجزأ من الحق، كأنه البعد الرابع الذي لا يتم الحق إلا به.

٧

وإذا كـانـت الأديان تنبع مـن أصل فطري واحـد، وإذا كـانت غايتهـا واحدة ووسيلتها واحدة، وإذا كـان الحق فيها كلها قـائمًا ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها؟.

الخلاف بين أهل الأديان اختـلاف في التركيب السيكولوجي للناس، والصور التي تعبر بها النفوس عن تأثرها بالعوامل المطهرة تختلف، وبعبارة أخرى تختلف مظاهر التدين باختلاف موقفنا من القـوة العليـا التي يهتـدي بهـا من يؤمنون بالغيب، تخـتلف باختلاف موقفنا من الله.

وموقفنا من الله لا يكون إلا خوفًا أو حبًا أو أملاً. وفي نفس كل متدين شيء من هذه الأمور الثلاثة، ولكن تغلب إحدى هذه العواطف على غيرها في النفس الواحدة، ويتوقف ذلك على مزاجها الخاص بها.

* * *

فإن كنت ممن يدفعهم إلى الخير خوفهم من الله، وخشيتهم من عدله حين يبطش بالظالمين والخاطئين، وإن كنت ممن يمنعـهم من الشـر أن الله يعلم مـا يسـرون ومـا يعلنون وأن عـدله لا يخطئ المذنبين، إذا كنت من هؤلاء فأنت موسوي مهما يكن الدين الذي تدين به.

وإن كنت تشعر في قرارة نفسك أن الذي يدعوك إلى الخير حبك الله، وحبك الناس الذين يحبهم الله، وإذا كنت ترى أن تجنب الناس شرك لأن الله يحبهم كما يحبك، وأنك تفقد حبك الله حين تؤذي أحبابه وهم الناس جميعًا، فأنت عيسوي مهما يكن الدين الذي تدين به.

وإذا كان الذي يدفعك إلى الخير أملك في الله، والرغبة في الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، وإن كنت تشتاق إلى القرب من الله قربًا يكفل لك النعيم السرمدي والسعادة الخالدة فأنت إسلامي مهما يكن الدين الذي تدين به.

* * *

هذا التقسيم أقرب إلى فهم الواقع من تقسيم الناس إلى يهود ومسيحيين ومسلمين.

ومن المسيحيين من هم موسويون، يؤكدون الخوف من الله. يتبعون أوامره ويقدسونها حرفيًا، بل منهم من يرون أن عليهم أن يطهروا الناس بالقوة وأن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة ولو بالقتل والتعذيب. هؤلاء موسويون نفسًا، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إنهم يوشعيون وهم يحسبون أنهم مسيحيون.

ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن في تحقيقه من قسوة، يطيعون أوامر الله كما يفهمونها، ولو خالفت روح الدين مخالفة واضحة.

ومن المسلمين من هم عيسويون في طبيعة مزاجهم، فالشيعة يشعرون أنهم في حاجة نفسية إلى شهيد يقدسونه، يعتقدون أنه مات في سبيلهم فهم يحبونه حبّا يدفعهم إلى حب من يحبون هذا الشهيد.

على هذا النحو نستطيع أن ندرس تاريخ التطهر الإنساني على أنه وحدة متكاملة ظاهرها فيه خلاف كبير وباطنها متسق اتساقًا عميقًا.

وتاريخ التطهر تاريخ معاصر يجد كل إنسان في بعض حوادثه ما يعينه على حل مشكلة التوفيق بين حياته وضميره وعقيدته وهي مشكلة إنسانية أبدية. وأثر التطهر في تهذيب علاقة الفرد والجماعة أقل من أثره في نفس الإنسان. أما أثره في علاقة الجماعات بعضها ببعض فهو أثر ضئيل لا يعول عليه.

التطهّر

١

الإنسان حيوان يجاهد أن يتطهر، وجهاده هذا موضع فخره، وله أن يتميز به على كل ما عداه من الكائنات، فهو وحده الذي يميز الخبيث من الطيب، وله وحده نفس تهديه إلى معرفة الحق والباطل، وعقل يفرق به بين الخطأ والصواب، وله وحده ضمير يعرف به ما يحل له وما يحرم عليه.

التطهر قانون النفس البشرية الأكبر، لا تطمئن إذا أغفلته، ولا تستقر إذا حادت عنه. فهو أصل من أصول كيانها السليم.

وليس التطهر عرفًا بين الناس ابتدعوه لتستقيم به حياتهم على نحو ما. وليس هو ترفًا عقليًا يلذ من يستطيع أن يتحلى به، بل هو قانون نفسيّ قائم له أصوله وغاياته ووسائل تحقيقها. وله مظاهر في حياة كل إنسان، وهو الذي جعل الحياة الاجتماعية ممكنة ولم تكن هذه الحياة هي التي أوحت به إلى الناس.

ولو لم يغفل الناس هذا الأصل النفسيّ للتطهر ما اضطربوا في

فهم نفوسهم ونزعاتهم. ولكنهم قصروا بحثهم على مظاهر التطهر ووسائله، وهي متعددة يكاد بعضها يعارض البعض الآخر أو يناقضه. فغمضت عليهم أمور هي في أصلها واضحة وفي غايتها مستقيمة.

والتطهر مظهر من مظاهر قانون كونيّ عام هو الاستقطاب. ونحن نعرّف الاستقطاب في الجماد والنبات والحيوان. والتطهر من أثر عمله في طبيعة الإنسان.

٢

ويقوم الاستقطاب على أمرين:

الأول: وجود قوة كونية قادرة فعالة «كافية» للتأثير في الأشياء المهيأة لقبول أثرها، هذه القوة تتجه بالمستقطب إلى القطب. وهي خارجة عن الشيء المستقطَب.

والأمر الثاني: هو وجود صفة في هذا الشيء المستقطب تجعله قليلا للتأثر بالقوة الموجهة إلى القطب.

والاتجاه المباشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطاب، وقوانين الاستقطاب متشابهة وإن اختلفت مظاهره، ودراسة هذه القوانين في غير الإنسان تبين لنا القواعد الكبرى التي تتحكم في التطهر الإنساني من حيث هو استقطاب نفسيّ.

وأبسط قواعد الاستقطاب ما نراه في الجوامد حيث تكون ديناميكية الاستقطاب واضحة، وهي أوضح ما تكون في

استقطاب الإبرة الممغنطة. تراها أمامك هامدة لا يدلك شيء فيها على ما في طبيعتها من قوة كامنة. حتى إذا علقت في خيط أو وضعت على شيء يطفو على الماء تهيأت لها حرية التعبير عن هذه القوة. عند ذلك تراها تتجه إلى القطب الأرضي في غير عنف.

وهي بذلك تدل على وجود القطب وتتأثر به، وفي هذه الحال يكون القطب ثابتًا أبدًا وقوته لا تتغير. ولكن تأثر الإبرة به يتغير قوة وضعفًا، وإن ظل الاتجاه ثابتًا، على قدر ما في الإبرة من قوة استقطابية. وتزيد قوتها كثيراً ويقوى استقطابها إذا عولجت بما يقوي القوة الكامنة فيها.

ويعوقها عن الاستقطاب ألا تكون لها حرية التعبير عن هذه القوة حين تكون ملقاة على الأرض لا تستطيع أن تتجه شطر القطب.

وأكثر ما تتأثر به الإبرة الممغنطة أن تعمل فيها قوة ممغنطة أخرى قريبة منها. عند ذلك نراها تنحرف عن محور استقطابها. فإذا كانت جارتها إبرة قوية تأثرت الضعيفة بالقوية أثراً واضحًا، ولا تنجو القوية من أثر الضعيفة فيها وإن قل.

والاستقطاب في الكائنات الحية أكثر تعقيداً وأصعب تحليلاً، تتم به فسيولوجيا النبات على أحسن وجه، وتتم به بيولوجيا الحيوان على أحسن وجه. وليس ما يمنع أن يكون الاستقطاب صفة تتم بها سيكولوجيا الإنسان على خير وجه.

* * *

ومظهر الاستقطاب في النبات هو نموه رأسيًا إلى السماء مهما يكن سطح البقعة التي ينمو فيها. وسبيله إلى ذلك جهاز فيه - وهو جهاز معقد من غير شك - يجعله قابلاً للتأثر بالجاذبية ويمنعه أن يحيد عن الاتجاه الرأسي، إلا أن يعوقه عن ذلك عائق أو يصيب بعض أجزائه عطب، أو يثقل عليه حمل ما يحمل من ثمار تميل به إلى غير جهته الطبيعية.

وفي هذا الاستقطاب ما في استقطاب الجوامد من وجود عاملين: عامل كوني خارجي وصفة في النبات تجعله قابلاً للتأثر بهذا العامل. واستقطاب النبات يدل على وجود الجاذبية، وهي تعمل عملها في تنظيم نموه ما دام هذا النمو طبيعيًا. وكل انحراف يعتري النبات يدل على عيب فيه لا في الجاذبية.



ومظهر الاستقطاب في حياة الحيوان ما نراه في هجرة الطير، حيث تخرج في وقت معلوم وتجتمع في السماء على هيئة بعينها ثم تتجه إلى حيث تتم دورة حياتها على أحسن وجه، يدفعها إلى ذلك فطرة كامنة في تكوينها. ونحن نعلم أنها تتجه إلى حيث يكون الجو أكثر دفئًا. ولكن أنى لها أن تعرف جهة الدفء على الأرض وهي طائرة. ليس لها من سبيل إلى ذلك إلا أن تكون هناك قوة كونية خارجة عنها قادرة على أن تؤثر في جهاز فيها مهيأ لهذا التأثر.

ولم نعرف بعد على وجه التحديد هذه القوة العاملة التي تهدي الطير إلى حيث يكون الدفء وقد تكون الجاذبية أو الشمس أو غير ذلك. ولا يعنينا هنا إلا أن نتبين أن هناك عاملين يعملان في حياة الكائن الحيّ: قوة خارجة عنه تستطيع أن تؤثر فيه، وصفة كامنة تجعله قابلاً لهذا التأثر.

وأغلب حالات الاستقطاب التي نعرفها يقينًا يكون فيها القطب أمرًا كونيًا عامًا لا يتغير. وهو دائمًا خارج عن الشيء المستقطب، وكذلك محور الاستقطاب يظل ثابتًا. وإنما يكون التغير في صفات الشيء المستقطب وفي ما يحيط به من قوى يشتد بها استقطابه أو يضعف، ويستقيم بها اتجاهه أو ينحرف عن محوره الطبيعي.

٣

كذلك لا تتم حياة الإنسان من حيث إن الإنسانية هي ما يرتفع به الإنسان عن الحيوان إلا بعاملين: قوة عليا خارجة عن الإنسان تهديه إلى ما تتم به إنسانيته، وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثر.

هذه القوة الهادية التي تتأثر بها النفس الإنسانية، والقبلة التي تستقبلها النفس حين لا يعوقها عن ذلك عائق، والقطب الذي تتجه إليه كل نفس ارتفعت عن الحيوانية البحتة، هو أصل كل

خير، وهو سر كل تطهر، وهو مصدر الخير المطلق، هو ما عرفه الناس منذ الأزل أنه هو الله.

هذا هو القطب وبينه وبين النفس البشرية محور استقطاب هو الصراط المستقيم، وهو ما يصل بين الله وبين النفس البشرية حين تتجه إلى الخير المطلق. وهي فاعلة ذلك بفطرتها حين تكون بعيدة عن المؤثرات التي تحيد بها عن هذا الصراط. وحين يتهيأ لها حرية التعبير عن فطرتها التي جُبلت عليها.

* * *

أما المستقطب في حالة التطهر الإنساني فهو النفس البشرية، والناس يختلفون في تقديرهم طبيعة هذه النفس. منهم من يسيئون الظن بالإنسان، يحسبون أن في أصل طبعه ميلاً إلى الشر والظلم، وأنه كان في الأصل ملكًا كريمًا ثم استجاب لما في طبعه من حب العصيان فسقط من عرش الخلق القويم، ونزل عن الكمال المطلق وكان له مهيأ.

وهم يرون أنه لم يقم من كبوته بعد، وعندهم أنه لا يرجي للناس خير حتى يعود كل فرد منهم مرة أخرى ملكًا كريمًا لا يرتكب ذنبًا ولا يخضع لشهوة ولا يقترف إثمًا، كما كان حاله قبل أن يرتكب المعصية الأولى.

وآخرون يرون أن الإنسان حيوان ارتفع إلى الإنسانية حين عرف الحلال والحرام وفرّق بين الخير والشر، هؤلاء يرون أن جهاد الإنسان في هذا السبيل هو عنوان إنسانيته.

مثل الإنسان اليوم بعد جهاده الطويل في سبيل التطهر مثل الرجل تلقاه على سفح الجبل مرهقًا تتعثر خطاه وتزل قدمه، فإذا قدرت أنه كان في القمة ثم بدا له أن ينزل إلى هذا العذاب فلك أن تغضب عليه وتحقر أمره. ولكنك إذا قدرت أنه يصعد في الجبل جاهدًا، وأنه يسعى إلى القمة وإن أعياه الصعود فقد يحول غضبك عليه إلى بعض الرضى، واحتقارك إياه إلى ما يقرب من الإعجاب.

* * *

هذان المذهبان اللذان يصدر عنهما رأي الناس بعضهم في بعض متناقضان في الظاهر، واختلافهما يرجع إلى اختلاف الغايات التي يرجوها أصحاب كل رأي.

والذين يسيئون الظن بالإنسان هم الذين يرغبون في هدايته بتأكيد الغايات العليا، وتحديد سبل الصعود إلى هذه الغايات. فهم يؤكدون أن المعصية واقعة إن لم نعمل على اجتنابها وأن الظلم واقع ما لم نكبح جماح الظالمين. ولذلك نرى أكثر الأديان على هذا الرأي؛ لأن الغرض الأول للدين هو الهداية والوعظ. فهو يحدد للناس القبلة التي يكون الخير شطرها. ويحثهم على بلوغ الطهر الذي ليس عليهم مستحيلاً. ألم يكونوا مستمتعين به قبل أن يحطهم العصيان إلى ما هم فيه؟

والرأي الثاني يصدر عن دراسة النفس الإنسانية في حالتي العصيان والطاعة، وعن تفهم العوامل التي تحملها على الخير والتي تدفعها إلى الشر.

وكلا الرأيين صواب. والخلاف بينهما يرجع إلى اختلاف النقط التي يبدأ منها تفكير أصحاب كل رأي. هؤلاء يبدءون من الله ويصلون إلى الإنسان، وأولئك يبدءون من الإنسان، وليس ما يمنع أن يصلوا إلى الله.

وإنما يتضح الخلاف بينهما حين نبحث الأساليب المختلفة التي يتبعها أصحاب كل رأي في الدعوة إلى الخير.

فالذين يرون أن العصيان أصل في الطبيعة البشرية يدعون إلى الخير عن طريق الطاعة، ونراهم يريدون حمل الناس على اتباع الأوامر وتجنب النواهي كارهين أو راغبين.

والذين يظنون أن الإنسان طيب بطبعه يريد الخير بفطرته إلا أنه يحيد به عن الحق عامل من عوامل الشر. هؤلاء يرون أنه أهدى للناس أن تقوى فيهم دوافع الخير وموانع الشر. وأن نبين لهم عوائق الخير ودوافع الشر. فيكون تطهرهم عن علم وفهم.

التطهر عن طريق الدين

١

التطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة .

ولم يعرف الناس في تاريخهم الطويل شيئًا أقوى من الدين في تطهير النفوس ، وعن طريقه بلغت النفس الإنسانية أقصى ما بلغته من سمو . والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله .

وأركانه على ذلك ثلاثة : نفس مستهدية ، وقطب يستهدي ، وصفة في النفس تهيِّئها للتأثر بقوة القطب ، هذه الصفة هي الإيمان .

والدين هو جماع هذه الأمور الثلاثة فهو ظاهرة كونية نفسية .

وعلى ذلك يشمل البحث في التطهر بالدين مباحث ثلاثة :

مبحث في طبيعة النفس الإنسانية .

ومبحث في القدرة الإلهية .

ومبحث في الإيمان من حيث هو الصلة بين الله والإنسان.

* * *

والطبيعة البشرية في أول أمرها تكون غفلاً غير ذات لون خاص. ثم تدب فيها روح الاستهداء وبذلك تصبح نفسًا. حتى إذا اهتدت فعلاً كان لنا أن نسميها ضميراً.

والنفس الإنسانية بفطرتها وطبيعة تكوينها تستهدي الخير. وأكثر الناس طيبون بطبعهم، يرتاحون إلى عمل الخير ويستشعرون سروراً عميقًا حين يتاح لهم أن يعملوا عملاً صالحًا. ويدل على الخير الكامن في النفوس أن يندم الناس على ما يعملون من شر، وأكثرهم لا يندمون إلا قليلاً وإلى أمد قصير على خير عملوه ففاتهم نفع كانوا يرجونه، على حين أنهم يندمون كثيراً على شر ارتكبوه كان لهم عنه مندوحة. وقد يفرحون به وقتًا قصيراً ثم يذهب النفع ولا يبقي إلا الندم.

قد تقول إن أعمال الناس لا تدل على أنهم بفطرتهم يستهدون الخير. والواقع أن الأعمال السيئة لا تدل دائمًا على سوء في طبيعة فاعليها، أليس من طبع النار أن تضيء، ثم يحدث أن تكون مصدر دخان تظلم به الدنيا وتختنق به الأنفاس، ولا يدل ذلك على طبعها. كذلك النفوس قد تكون طيبة بفطرتها ثم يعتريها ما يحجب عنا ضوءها ودفئها ويزيد في دخانها.

اهتداء النفوس فطري خلقي، أما ضلالها فمكتسب يأتيها من عوامل خارجة عنها طارئة عليها. وليس من الأمراض الخلقية في

النفوس أن تتجه بفطرتها إلى الشر. كما أن الإبرة الممغنطة لا يمكن أن تتجه بطبيعتها إلى غير القطب الأرضي ما لم تعمل فيها قوى خارجة عنها.

* * *

والعيب الخلقي في النفوس لا يكون إلا ضعفًا في قدرتها على الاهتداء ومظهر ذلك النفس الهامدة، وأصحاب النفوس الهامدة يعملون الخير حين يعملونه على غير هدى، ويتجنبون الشر حين يتجنبونه غير واعين. وهم لا يحفلون بمغزى ما يفعلون. حياتهم من يوم إلى يوم، ومن حدث إلى حدث على غير نظام مستقر، ولا يعنيهم إلا أن يستمتعوا بالحياة التي يحيونها لساعتهم، يحسبون ذلك غاية السعادة فيفوتهم بذلك أجمل ما في الحياة وهم لا يعرفون كيف يعبرون عما في أعماق نفوسهم من جمال، وما في طباعهم من سمو كامن فيهم بالقوة يحتاج إلى ما يظهره، أو قد يكون تعبيرهم عن طبيعتهم أشبه بتعبير الأطفال عن نفوسهم حين يرسمون أو ينحتون، تعبير ناقص مضطرب مفكك، على حين أن النفوس القوية في استهدائها تعبر عن طبيعتها تعبيراً جميلا له أسلوب ودلالة وموضوع.

ويظن أصحاب النفوس الهامدة أنهم في غنى عن أن يتعهدوا نفوسهم بما يقوي استهداءها أو يروضها على الخير، يحسبون أنهم يستطيعون أن يهتدوا بالعقل وحده.

هذا الظن خطأ قديم لأن الطبع هو الذي يحدد أسلوب الناس في الحياة وأغراضهم منها، وليست الغايات هي التي تحدد طباع الناس، ذلك أن التكوين السيكولوجي لكل إنسان ثابت أبدًا. والعقل لا يغير من هذا التكوين شيئًا، ولا عمل له في الواقع إلا أن يعين على تنفيذ ما تتجه إليه النفس بما ركب فيها من طباع.

٢

ما زال الناس يبحثون عن الله منذ خرجوا من الكهوف الأولى، وما زالوا يفكرون في أمر الله منذ عرفوا التفكير، بحثه أبسط الناس فكرًا، كما شغل به أعظم الناس عقلاً. واختلفوا في تخيلهم هذه القوة العليا، كل على قدر ما في عقله من رقي وتهذيب.

ولو بحثت في فهمك الله لوجدت أن هذا الفهم تطور على نحو يشبه التطور الذي حدث في فهم البشرية كلها لله.

* * *

فأنت عرفته طفلاً على أنه كلمة ترددها اتباعًا لأوامر صدرت ممن هم أكبر سنّا وأكثر علمًا، ولم تفقه منها شيئًا كثيرًا، ثم تخيلته بعد ذلك كما تتصور أباك رجلاً عظيمًا جدّا يعلم ما لا تعلم، ويقدر على ما لا تقدر عليه. وهو يجازيك حين تطيعه ويعاقبك حين تعصيه. حتى إذا بلغت السن التي يدرك فيها عقلك المجردات تخيلته كائنًا أعلى منزهًا عن صفات المخلوقات جميعًا.

والتنزيه يجعل القدرة الإلهية من أمور الغيب بعد أن كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين.

* * *

والناس يختلفون في موقفهم من الغيب، يكون منهم المؤمنون والمتشككون والملحدون، وعليك أن تحدد موقفك من هذه الملل المتباينة.

فهل أنت من المؤمنين الذين وضعوا لله صفات الكمال كلها كما يرونها في الإنسان وإن كانت في الإنسان منقوصة مشوهة؟ هؤلاء تطمئن نفوسهم إلى هذا الكمال المطلق غاية الاطمئنان، وبه تتطهر نفوسهم كل التطهر.

أم أنت من المتشككين الذين يؤمنون بوجود الله ولكنهم لا يؤمنون بالصفات التي يصفه بها المؤمنون؟ فهي عندهم صفات إنسانية بحتة مهما يكن فيها من كمال. هؤلاء يشكون كثيراً في ما انتهى إليه بعض المؤمنين من أن الله خلق الإنسان على هيئته. وهذه الحيرة تجعل المتشككين أقل قبولاً للتطهر الذي يؤدي إليه الإيمان المطلق، ولا يفيدهم شيئًا أن نرغمهم على ما لا يجدون فيه اطمئنانًا. بل لعل هذا الإرغام يزيد في شكهم وقلقهم.

أم أنت من الملحدين الذين لا ترضى نفوسهم إلا بما يفهمون كنهه؟ يريدون أن يفهموا الله بعقولهم. ولم تقنعهم البراهين العقلية على وجود الله، ولم يجدوا مقنعًا لهم في البرهان العقلي على صفاته.

* * *

وليس للملحدين أن يعجبوا لإخفاق البراهين العقلية البحتة على وجود الله إذ لم يكن من ذلك مفرّ، فالبرهان على وجود شيء ما لا يكون إلا عن طريق جهاز يتأثر به. والبرهان على وجود النور يكون عن طريق العين المبصرة ولا يكون عن طريق السمع. والنفس المستهدية هي وحدها التي تشعر بالقدرة الإلهية. وهي وحدها التي تثبت وجوده. والبرهان النفسي هو وحده البرهان الذي تثبت به صفات الله. وليس العقل جهازًا يؤثر فيه الاستقطاب إلى الخير فهو غير صالح لإثبات وجود الله.

وعندي أن الصفات التي وضعها المؤمنون للذات العلية منها قدر يمكن أن يجمع عليه الناس كافة. وأن هذا القدر يكفي لتطهر أكثر الملحدين لو عرفوا كيف يتدبرونه.

وعلماء الطبيعة يعرفون المدي الواسع الذي تمتد على طوله أمواج الأثير، ولكنهم حين يدرسون الضوء يقصرون بحثهم على قطاع منه يؤثر في العين وتتأثر العين به. وكذلك يعلم المؤمنون أن القدرة الإلهية واسعة شاملة للكون كله. ولكنا حين ندرس قدرة الله نستطيع أن نقصر بحثنا على قطاع منها يؤثر في النفس الإنسانية وتتأثر هي به. والذين يعجزون عن فهم القدرة الإلهية كلها دفعة واحدة يستطيعون حين يبحثون أمر هذه القدرة أن يقصروا بحثهم على ما تتطهر به النفس. ولا يكون هذا عيبًا وإن كان نقصًا.

والمؤمنون في غير حاجة إلى هذا التخصيص في بحث القدرة الإلهية. أما الملحدون والمتشككون فقد يفيدون من هذا

التخصيص. ومن السهل عليهم أن يؤمنوا بأن لهم نفسًا قابلة للاهتداء، وأنها تستقطب قوة عليا تؤثر فيها، ويكون إيمانهم إيمانًا بالقوة المطهرة لقدرة الله. وبهذا الفهم يستطيع الناس كافة أن يكونوا مؤمنين على نحو ما.

* * *

وليس صحيحًا ما يظنه بعض الناس من أن الخير في نفوسهم، وأنهم يهتدون إليه بعقولهم. هؤلاء ينسون أنهم لم يعرفوا الخير إلا بعد أن عرفته الإنسانية قرونًا طويلة عن طريق استقطابنا الله.

ولو أنهم لم يرثوا التطهر والخير عمن سبقهم من المؤمنين لظل علمهم بهذه الأمور علمًا بدائيًا ناقصًا.

ومن حسن الحظ أن الناس جميعًا يقدرون أن الإخفاق في البرهان على وجود شيء لا يمكن أن يكون برهانًا على عدم وجوده. وخاصة إذا كان البرهان عن غير الطريق الصحيح. والبراهين العقلية على وجود الله قد لا تقنعك. وقد يحملك الغيظ من ضعف بعضها على إنكار وجوده وهو خطأ منك أكبر من خطأ الذين يؤمنون إيمانًا نفسيًا لا يعجبك.

٣

الإيمان قوة كامنة في النفس السوية ترجع إلى طبيعة تكوينها، وهو أصل الصلة بين الله والناس، بين القطب والنفس المستقطبة.

والإيمان هو أن توقن أن أمور الغيب تجري على نحو يمكن الاطمئنان إليه وأن تثق بأن ما لا نعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف. أما الاطمئنان إلى ما نعرف فليس إيمانًا بل هو ثقة. وتقدم العقل يخرج بكثير من أمور الإيمان إلى ميدان الثقة حين نعرف سر ما كان علينا مغيبًا من قبل.

وإذا كنت من المؤمنين فأنت في غنى عن أن نتحدث إليك عن الإيمان فهو شيء تعرفه بنفسك وتقدره حق التقدير.

وإذا كنت من المتشككين فقد يكون الحديث عن الإيمان حافزًا لك على البت فيما أنت حائر فيه، فتدخل بذلك في زمرة المؤمنين.

وإن كنت من الملحدين فقد يؤدي بك حديث الإيمان إلى أن تعرف منه قدرًا يوافق طبعك فتتطهر به.

ذلك أن النفس البشرية لا مناص لها من أن تؤمن بشيء. والذين لا يؤمنون بشيء أصلاً قليلون وهم المشوهون نفسًا الذين يعرضهم إلحادهم إلى اضطراب نفسي عنيف. وعدم الإيمان مصدر أكثر الأمراض النفسية، وضعف الإيمان أكبر أسباب القلق النفسي.

وإذا كنت غير مؤمن فستقول إنك لا تشعر بهذا الاضطراب، وإن حياتك مطمئنة مستقرة إلى ما تعلم، وإنه ليس لك شيء من التشوه النفسي الذي نتحدث إليك عنه.

إذا كانت هذه حالك فاعلم أنك في الواقع تؤمن بشيء إيمانًا قويّا إلى حد يرضيك وقد تسمي ما تؤمن به عقلاً أو علمًا، وقد تظن أنك تؤمن بالطبيعة. كل هذه تعابير مختلفة عن شيء معنوي غيبي على نحو ما، تؤمن به فلا تضطرب نفسك. والعبرة ليست بما تؤمن به، ولكن العبرة ـ على الأقل من حيث صحة النفس ـ تكون بقوة إيمانك أي بما في نفسك من قدرة على الاهتداء بما تؤمن به.

* * *

الإيمان مادة حرمانية، وأعني بذلك أنه شيء إذا حرمته تمامًا أصابك مرض نفسي خطير من أثر هذا الحرمان، ولكن قدراً منه وإن قل قد يكفي في صلاح النفس واستقامة أمورها، وكثير من الملحدين بهم هذا القدر من الإيمان بشيء غيبي وبذلك لا تصيبهم أمراض القلق.

وإذا قصرت نفسك عن الإيمان بالله فعليك أن تتدبر هذه الأمور التي تؤمن بها من دونه. ألست ترى أنها أمور ضعيفة ناقصة وأن اهتداءك بها لا يغني عنك شيئًا حين تشتد بك عواصف القلق والشك، وقد لا تطمئن نفسك إلى الإيمان بكل الصفات التي ينسبها المؤمنون إلى الله، ولكنك تستطيع أن تطمئن إلى بعضها فتتطهر به، ولا أدعوك إلى الإيمان بما لا تطمئن نفسك إليه لأن ذلك لا يطهرك.

وليكن إيمانك بما تؤمن به قويّا. والذين لا يؤمنون إيمانًا قويّا

بالعقل أو بالطبيعة أقرب نفسًا إلى كبار المؤمنين بالله وأقرب إلى الطهر من ضعفاء الإيمان في كلتا الطائفتين.

وقد مضي العهد الذي كان الناس يفخرون فيه بالإلحاد ويحسبون أن التفكير المطلق غاية الرقي. وأن فوضى النفس أصل وأن إرغامها على الإيمان قد يخرج بها عن طبعها. والواقع أن النفس مستهدية أصلاً ويخرج بها عن الهدي قوى تنحرف بها عن الصراط المستقيم.

ولا يغرنك ما تظن في نفسك من إلحاد أو تفكير حر، فأغلب الظن أنك لست ملحدًا ولا كافرًا وأنك تؤمن بشيء ترتاح إليه نفسك. وسيتبين لك أن نفسك لا ترتاح حقًّا إلى إيمان شامل قوي إلا حين تؤمن بالله، وأن الخلاف بينك وبين المؤمنين اختلاف في التعبير عن الإيمان، وهو اختلاف في المظهر لا يدل على خلاف في جوهر الإيمان، وأنك في حقيقة أمرك لا تكفر بالله وإنما تكفر بما يقال لك عن الله.

* * *

وجوهر الإيمان هو أن تكون على يقين أن نفسك في طبعها استقطاب، وأن الفوضى تضر بها ضررًا بليغًا، وأنها في حاجة إلى قوة تتجه إليها؛ وهي لا ترتاح حتى تؤثر فيها هذه القوة.

وإذا كانت القوى التي تؤثر في النفس كثيرة، فإن أهداها وأقواها وأكثرها شمولاً وأقربها إلى الطهر هو القدرة الإلهية، والإيمان بغير الله لا يرضي النفس المستهدية حقًّا؛ لأنه لا يعينها

على الهدى ولا يحميها من الضلال إلا في قليل من الأمور وإلى أمد قصير وعلى ضعف واضح.

والرضا النفسي وحده هو الدليل على أن الاهتداء بالله حق.

يعمل العقل في تحديد مظاهر الإيمان فتكون العقائد؛ والعقيدة على ذلك تعبير عن الإيمان وليست هي إياه. وإذا كان الإيمان واحداً في النفوس من حيث هو قوة كامنة فيها فالتعبير عنه يختلف باختلاف العقول، كل عقل على قدر رقيه وتهذيبه.

وموقف الناس من القوة العليا التي يؤمنون بها غيبًا هو الخوف منها أو الأمل فيها. والبدائيون وكبار المتفقهين سواء في شعورهم بهذا الخوف والرجاء. ولكن التعبير عن هذا الشعور وأساليب إرضاء القوة الغيبية والعمل على التقرب منها تختلف اختلافًا كبيراً عند الفريقين: البدائيون يسعون إلى إرضاء معبوداتهم بالضحايا والقرابين، والمؤمنون الأتقياء يرضون الله بالصلاة والعبادة الخالصة.

العقيدة أثر عمل العقل في النفس المؤمنة، والعقل لا يعمل في الإيمان نفسه، وإنما عمله مقصور على التعبير عنه وتجسيمه عقائد وعبادات وأعمالاً. والصورة التي يمثل بها الإنسان الغيب من عمل العقل. والعقول مختلفات والصور متباينة والعقائد بعيدة بعضها عن بعض وإن يكن أصل الإيمان واحداً.

* * *

على هذا الفهم يكون دور العقل ودور الإيمان واضحين، ولا داعي للخلط بين عمل كل منهما. والعقليون يزعجهم أن يقال إن شيئًا ما لا دخل للعقل فيه. والمؤمنون يريدون التوفيق بين الإيمان والعقل حتى لا تُضعف الثقة بالعقل من قوة الإيمان. كل هذا خلط في التفكير لا يخرج منه إلا الخطأ.

وخير العقائد ما يتفق وتفكيرك، حتى لا يكون بين إيمانك وتعبيرك عنه اضطراب، ولك أن تختار من العقائد ما يتفق وتفكيرك حتى يتم لك التطهر. على أن اختلاف العقائد ـ وقد تكون مختلفة جدًّا ـ لا يؤثر في قوة الإيمان وتطهيره للنفوس، وما هي إلا تعبير وتمثيل وتصوير للإيمان.

ومن الخطأ أن تظن أن العقائد هي الإيمان، وقد تتعارض العقائد وقد تتناقص وتكون كلها مع ذلك دليلاً على الإيمان العميق. وقد يكون النور واحدًا وتختلف ظلال الأجسام التي يقع عليها النور. كذلك يكون الإيمان واحدًا وتختلف العقائد باختلاف العقول التي يقع عليها النور.

٤

من أخص صفات التفكير الإنساني أنه يعمل دائمًا على تجسيم المعنويات ويستريح إليها حين يتمثلها أعمالاً، ومن ذلك رغبته في تجسيم العقائد؛ واطمئنانه إليها حين يتحقق له تحويلها إلى أعمال بعينها هي العبادات.

ويظن بعض علماء الاجتماع أن العبادات خرافة يحتاج إليها الناس حين يريدون أن يتفقوا على شيء يقدسونه فتصلح بهذا الاتفاق حياتهم الجماعية. ويظن علماء الطبيعة أنها عقيمة لا تغير من أمور الدنيا شيئًا. ومن علماء النفس من يقولون إنها إيحاء. ويعنون بالإيحاء شيئًا لا وجود له إلا في مخيلة من يتأثر به. وظن آخرون أنها ليست إلا وسيلة لتهدئة النفوس المضطربة وأنه لا حاجة بغيرهم إليها.

وقد يكون رأيك في العبادات متفقًا مع بعض هذه الآراء، وقد تقول إنك تعرف من المتعبدين المخلصين من لا تسمو نفسه على نفسك. وقد ترى في بعض العبادات عجبًا، كما يفعل بعض أهل التبت، فمنهم من لا يسيرون إلى معبدهم على الأقدام إنما يقيسون الأرض بأجسامهم حتى يبلغوا المعبد. وقد تشمئز نفسك من بعض ما يفعل الناس بمعبوداتهم من الحيوان، وقد تضحك من البدائيين الذين يظنون أنهم يغيرون من سنن الكون بصلاتهم. وقد ترى أنه من غير المعقول أن تكون هناك صلوات بعينها يرضى عنها الله ولا يرضى عن غيرها، وقد ترى أن الصلاة على كل حال لا تغير من أعمال الحياة شيئًا.

كل ذلك جدير أن يثير فيك الشك في قوة العبادات ولكن هل أنت على يقين أنها لا أثر لها في نفس المتعبد؟ وهل أنت على ثقة أن الصلاة لا تزيد في طهر المتطهرين؟ أو أنها لا تنهي المرتكب عن بعض ما يفكر في اقترافه من الذنوب؟ أم تحسب أنك بلغت من الطهر غايته، فليس للصلاة أن تزيد في طهرك شيئًا.

الحق في أمر العبادات أنها تؤثر في النفوس فتجعلها أكثر قبولاً للهداية وأكثر قدرة على الاستهداء، وكل صلاة تزيد في قدرتك على الاهتداء هي صلاة صالحة مقبولة عند الله. والمؤمن الذي يحرص على العبادات وهو غير مرغم عليها يكون أرهف حسّاً وأجمل نفساً وأكثر قبولاً للمعنويات ممن لا يعنيه أمرها. وهي تزيد في قوة الاستهداء كما تزيد قوة الاستقطاب في الإبرة الممغنطة حين تتعهدها بقوة ممغنطة أكبر منها.

والعبادات لا يصيب الله منها شيء، ولكن الناس يفلحون بها حين تقوي فيهم القدرة على استهداء الخير. والصلاة لا تغير من سنن الكون شيئاً، ولكنها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها تجعل النفس أكثر قبولاً للهدى، وأقدر على مقاومة الانحراف.

* * *

هذا هو التطهر عن طريق الدين. وأركانه: الله ونفسك وإيمانك، وما يتبع الإيمان من عقائد وعبادات. ومهما يختلف تدينك عن تدين غيرك فأنت بالغ به السلم النفسي إذا أحسنت تدبره.

وهذا ما نعنيه حين نقول إن التطهر يؤدي بك إلى الوادي المقدس. ونظرية الوادي المقدس تدعو إلى السلم النفسي عن طريق تقديسك أمراً عالياً، وهي وحدها التي يمكن أن يجمع عليها المتطهرون ديناً، على اختلاف عقائدهم، بل قد يجمع عليها المتدينون وغير المتدينين.

٥

وقد يزعجك ما ترى من خلاف بين المتدينين. كل فريق يرون أن غيرهم على خطأ أو على ضلال، بل قد يرون أنهم كفار. وقد يخيل إليك أن الخلاف بين المتدينين ـ هو خلاف بلغ في كثير من الأحيان حد القتل ـ يضعف من ثقتك في صدق ما يعتقده بعضهم دون البعض الآخر، وقد ترى أن الناس يختارون دينهم بحكم الوراثة والبيئة، وأن الاقتناع يأتي متأخرًا في حياة الإنسان، وأن التحول من دين إلى آخر نادر، وإن دل على شيء فهو دليل على ضعف الشخصية وقلق النفس. ولعلك ترى ما يراه المحدثون من أنهم قد يستطيعون أن يؤمنوا بوجود إله كوني ولكنهم ليسوا في حاجة إلى الإيمان بإله شخصي يحيط بحياتهم وعملهم وعمل جميع الناس فردًا فردًا.

ولعلك أن ترى في نظرية الاستقطاب حلاً لهذا الاعتراض، فالقدرة الإلهية قوة كونية وأثرها في الفرد أثر شخصي، كما تكون الجاذبية قوة كونية ويكون أثرها على الإبرة المستقطبة أثرًا فرديًا، وقد تستريح نفسك ـ أو عقلك ـ إلى أنه ليس هناك تناقض بين الأمرين.

وقد ترى أن الأصل في الأديان أن تتفق، فإن اختلفت فذلك لعيب فيها. على حين أن الخلاف يرجع في الواقع إلى المتدينين أنفسهم وأن العيب فيهم لا في الأديان.

وأكثر المتدينين يظنون أن الإخلاص لدينهم يحتم عليهم أن ينكروا كل ما يؤمن به غيرهم، ويظنون أن التعصب يدل على قوة إيمانهم، ويحسبون أن حملهم الناس على الإيمان بدينهم قسراً يقربهم إلى الله. وهم يخلطون بين جوهر الإيمان ومظاهره، بين الغاية من الدين ـ وهي التطهر عن طريق الإيمان بالله ـ وبين الوسائل التي يبلغ بها الناس هذه الغاية، وهم يظنون أن الشك في شيء مما يعتقدونه ولو كان غير ذي شأن لا يكون إلا كفراً.

* * *

وأكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكوّن منهم جماعة لها سلطان دنيوي وقوة فاعلة، ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيباً في الدين الذي يجمعون عليه. ولا ينكر أحد أثر المسيحية في تاريخ أوروبا، ولكن الخطأ أن ينسب ما في هذا التاريخ من ظلم وضلال إلى المسيحية نفسها، وهي من ذلك براء حتى حين يكون الأمر متعلقاً بنشر العقيدة أو إصلاحها أو ردها إلى الطهر الأول.

ولم يفت الناس ما في هذه الخلافات من أثر في شك المتشككين في الدين كله فحاولوا التوفيق، واتخذوا لذلك أساليب مختلفة ولم يوفقوا في أيٍّ منها.

ظن بعض المؤمنين أن الخلاف يزول إذا حملوا الناس على اعتناق دينهم كأنهم يريدون أن يكون العالم كله على دين واحد، ومن هنا كانت حماستهم في التبشير. ولم ينجح التبشير بالمسيحية

نجاحًا يذكر إلا في البلاد الوثنية لحاجة الوثنيين الشديدة إلى الهداية، ولكن أهل الأديان الأخرى لم يؤثر فيهم التبشير كثيراً.

وظن غير هؤلاء أن التوفيق بين الأديان يتم عن طريق الفهم العقلي لما في كل دين من تعاليم ومبادئ سامية. وعندهم أن أصل الخلاف الجهل. وهذا صحيح إلى حد ما، ولكن الفهم العقلي لعقيدة تخالف عقيدتك لا يؤدي إلى الفهم الروحي والاطمئنان النفسي إلى هذه العقيدة، فهذا أمر أعمق كثيراً من الفهم العقلي.

وظن آخرون أن التفاهم بين المتدينين يكون عن طريق التسامح. والأصل في التسامح أن تستطيع الحياة مع قوم تعرف يقينًا أنهم خاطئون. كأنك تتجاهل عقائد الآخرين. والدين أعز على الناس وأشد أثرًا فيهم من أن يكون تجاهله مؤديًا للتفاهم الحق. وقد يكون التسامح على هذا النحو استخفافًا منك بعقيدتك وهو حينذاك يكون شرّاً من التعصب بالنسبة إلى قدرتك على التطهر دينًا. وقد يكون التسامح كرمًا منك تجود به على من هم دونك إيمانًا. هذا التسامح لا يؤدي إلا إلى تفاهم سطحي لا يؤبه له ولا يدوم إلا قليلاً.

أما نظرية الوادي المقدس فقد تؤدي إلى التفاهم المنشود. إذ هي لا تحملك على التساهل في شيء من دينك. وهي كذلك لا تحملك على أن تحتقر عقيدة غيرك. وهي وحدها التي تعلم الناس أن التدين يبدأ من نقطة واحدة هي النفس الإنسانية وينتهي إلى غاية واحدة هي الله. وأن التطهر به يتم بعد ذلك على اختلاف طباع النفوس المتطهرة.

٦

وأرجو ألاَّ يزعجك ما في تاريخ المتدينين من عداوة وبغضاء، وأكثر هذا العنف كان الدافع إليه دنيويّا محضًا. وأقله كان الدافع إليه إحقاق الحق. ولم يكن الدين في أكثر هذا التاريخ إلا لواء حمله المتقاتلون كما يحملون الوطنية أو الكرامة. ولم يكن فيه من الدين إلا أنه شعار يذكر ليحمل الناس على التفاني في القتال، وليس الدين مسئولاً عما ارتكب الناس باسمه في تاريخهم الطويل.

وعلى كل حال تلك أمم قد خلت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولعلها كانت متطهرة وكان هذا مظهر تطهرها حسب ما كانت عليه مدنية ذلك العصر ورقيه وتهذيبه.

أما اليوم فلا محل للعداوة والبغضاء والتقاتل في أمور الدين. ولا محل للاستتار وراءه في حمل الناس على أن يكره بعضهم بعضًا.

والذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو الحقائق الأبدية وسبيل السمو بالإنسانية إلى أرقى ما تستطيعه. ثم نغفل كل ما عدا ذلك مما لا يتفق والمدنية المعاصرة.

٧

وإذا كنت ممن نشئوا على التفكير الحديث فقد يزعجك بعض ما يقول به المؤمنون. وقد ترى أنه من غير المعقول أن يرسل الله الصواعق على الكافرين لكفرهم، وعلى الظالمين لظلمهم. وأنت تعلم أنها تحدث لاختلاف في ضغط الكهرباء الجوية وأنه يمكن التنبؤ بها قبل حدوثها بأيام وشهور.

ولكن تطهرك بالدين لا يتعلق بهذا الرأي إن لم تكن مؤمنًا به. وكذلك ليس لك أن تعيب على المؤمن إيمانه بمثل هذا.

ألست ترى أنه من غير المعقول أن تزدرد النعامة حصًى كثيراً كأنها لا تفرق بين ما فيه غذاؤها وما لا فائدة لها منه. حتى إذا زاد علمك بوظائف أعضائها علمت أن في ذلك خيراً كثيراً لها، وأنها لا غنى لها عن ازدراد الحصى. وكان رأيك من قبل أن هذا غير معقول.

حقيقة الأمر أن ما تراه غير معقول في معتقدات المتدينين قد يكون ضروريّا لصحة نفوسهم، وأنه قد لا يكون لهم عنه محيص. وأن حرمانهم من هذه المعتقدات يضر بنفوسهم كما يضر النعامة أن تحرمها من الحصى الذي تأكله.

وفي أول عهد الناس بالميكروبات أراد بعض أهل العلم أن يعقموا غذاء الأطفال كله فأصابتهم أمراض حرمان أفسدت عليهم

صحتهم؛ لأن ما حرموه له في أجسامهم منافع لم يفطن إليها هؤلاء العلماء.

فلتؤمن بما تعتقد أن نفسك تتطهر به. ودع لغيرك أن يتطهروا كما تريد نفوسهم. وليس لك أن تعترض على تطهرهم بمعتقداتهم. فإنك لا تدري ما ينقص النفس ولا ما هي في حاجة إليه لاستكمال حياتها السوية.

٨

قد لا يعجبك من المتطهرين بالدين انصرافهم عن كل ما في الحياة من جمال وإسرافهم في البعد عن مباهج الحياة حرصًا على ما في الزهد من ضمان لتطهرهم، وظنهم أن كل ما يستمتع به الناس يقربهم من الإثم. وما أدى إليه هذا التفكير من القول بأن التمتع باللذات إثم في ذاته وإن لم يضار به أحد. وأن الامتناع عن اللذات خير في ذاته وإن لم يفد منه أحد واختلط على الناس أمر الخطيئة حين لا تكون شرّا. وأمر الشر حين لا يكون خطيئة. واختلفت بذلك معايير السلوك الإنساني.

التدين حق عند كل من يتطهر به. والمعتقدات حق حين تعين على هذا التطهر. والعبادات حق حين يكون اتباعها مقويًا لقدرتك على التطهر. وكل ما عدا ذلك يصح أن يختلف فيه الناس.

الهدى والضلال ليس أعمالاً بذاتها. وما هما إلا وجهات تتجه إليها النفس. والمتطهرون سواء وإن اختلفوا اختلاف شجرة الورد والنخلة الباسقة. ولا تكاد ترى بينهما اتفاقًا في شيء. ومع ذلك فكل منها يحقق قوانين كيميائية وفيزيقية وبيولوجية واحدة. وكلها تسقى بماء واحد في قطع من الأرض متجاورات. واختلافها لا يخرجها عن أنها تحقيق كامل لقوانين واحدة.

وكذلك الأديان مهما تختلف فهي تحقيق لقوانين عامة كونية نفسية. وكلها يحقق معنى التطهر.

وليس عيبًا في التدين أن المتدينين يختارون دينهم طبقًا لبيئتهم ونشأتهم فهذا أمر طبيعي؛ لأن الوراثة والبيئة والنشأة تحدد طبيعة النفس. وهذه بالطبع تحدد طريق التطهر.

وأكثر المتدينين يرون أن بغيرهم سفهًا وخبالاً حين يتبعون طريقًا غير طريقهم. والواقع أن كل إنسان يعد عدته لبلوغ واديه المقدس حسب الطريق التي يجد نفسه فيها. فإن كانت طريقه نهراً أعد لسفره سفينة. وإن كانت طريقه جبلية أعد لسفره ما يصلح من الدواب. وكلٌّ من الفريقين على صواب وإن كان كلٌّ منهما يظن بالآخر خبالاً.

٩

نفسك هي الكون كله بالنسبة إليك.

وحياتك هي الدهر كله بالنسبة إليك.

وكل ما في الكون مما لا يهديك أو يضلك لا وجود له بالنسبة إلى نفسك . . ووجوده لا يعنيك إلا عقلاً .

والدهر كله لا وجود له بالنسبة إلى نفسك إلا ما يكون فيه من عوامل تهديك أو تضلك . ووجوده في غير ذلك لا يعنيك إلا عقلاً .

قد يقال هذه أنانية مطلقة .

ولكنها أنانية العين التي هي على يقين أن ما لا تراه على نحو ما لا وجود له بالنسبة إليها .

وكما أن الكون كله بالنسبة إلى العين ليس إلا النور الذي تبصره فتهتدي به ، كذلك الكون كله بالنسبة إلى النفس هو الله الذي يؤثر فيها فتهتدي به .

وكل ما عدا الله لا وجود له بالنسبة إلى النفس ، وإن كان له وجود في الحواس .

والذين لا يعرفون الله لا يهتدون حقّاً . وإنما يهتدون بحواسهم اهتداء ناقصًا . حياتهم كلها ضباب ؛ لأن حواسهم لا تخترق حجب الغيب ولا ترتفع إلى ما فوق العقل والذكاء .

١٠

ولن يروقك الحديث عن التطهر إلا إذا صادف هوى في نفسك تطرب له ، فإن وجدت في نفسك إعراضًا عنه فليس لك فيه هداية ولن تفهمه حقّاً .

والحديث عن الله والصراط والتطهر أعجمي عليك ما لم تنقله إلى لغة نفسك الخاصة. ما لم تستطع التعبير عن هذه الأمور الغيبية تعبيراً تقتنع به نفسك اقتناعًا يرضيها فتتطهر به.

والتعبير عن الأمور الغيبية يحتاج إلى رمز يقربها من لغة الدنيا. والرمز ضروري للتقريب بين أمور الغيب وأمور الدنيا. ولكنه ليس ضروريًا لفهم النفس أمورها الخاصة بها.

والمؤمنون لا يرهقهم الرمز إلى ما يؤمنون به مهما يكن الرمز بعيدًا. أما الذين لا يجدون في نفوسهم قبولاً لأمور الغيب فسيجدون الرمز عليهم مرهقًا حتى يؤمنوا بما يدل عليه الرمز.

على أن الإسراف في الرمز يخرج به عن غايته حين يظن البسطاء أن الرمز حقيقة واقعة. وأنه وما يرمز إليه شيء واحد. عند ذلك ترى الناس يحيطون الرمز بالتقديس البالغ الذي هو من حق معبودهم عليهم. وفي بعض العقائد يبلغ الرمز حدّاً يختنق به كل تفكير ويراه غير المؤمنين بهذه العقائد خرافة تملؤهم اشمئزازاً وضجراً.

والإسراف في الرمز يشل التفكير السليم. ومن ذلك ما يفعل الهندوكيون حين يرمزون إلى الوداعة والسكون وعدم العنف باحترام البقرة. هذا أمر لا غبار عليه وإن كان غريبًا علينا. ثم يذهب الشطط بعامتهم أن يحترموا البقرة لذاتها ثم يزيد ذلك الاحترام حتى يصبح تقديسًا أو عبادة.

والرمز حين يكون مقصوراً على التعبير عن الغيب بأقرب أمور الدنيا إليه أمر مرغوب فيه وإذا زاد على ذلك أصبح مرهقًا للنفس غير مقبول عقلا .

وفي عصرنا هذا لا ينقم الملحدون من المؤمنين شيئًا مثل إسرافهم في الرمز وأكثره لا يصلح إلا للبدائيين . ويمكن الاستغناء عن كثير منه حين تتحدث إلى قوم بلغوا رقيًا في التفكير لم يكن معروفًا عند الناس في أول عهدهم بالتدين . ويحسن أن يكون الحديث عن الدين في العصر الحاضر حديثًا مستقيمًا صريحًا في كل ما تكفي فيه استقامة التعبير ووضوح الرأي وهذا يقرب ما بين الملحدين والمؤمنين في أمور كثيرة .

* * *

رحلة حياتك أولها من نفسك وآخرها إلى نفسك .

أولها نفسك ضعيفة غير ذات لون خاص . ولكنها بفطرتها مهيأة للاهتداء جهة الخير في ضعف وتردد وإن كان اتجاهها صحيحًا .

وتعتورك في أول الرحلة عوامل خير وعوامل شر . وأنت بعد أضعف من أن تقودها أو هي أضعف من أن تقودك إلى جهة بعينها . كذلك بعض الحيوان يكون في أول عهده بالحياة طريًا رخو الإهاب ، ثم يفرز ما يكون له غطاء يقيه الأخطار التي تضنيه أو تعله أو تقتله . فإذا تمت له الوقاية أصبح قادراً على تحقيق حياته

دون خوف بالغ أو رعب يشله. فإذا تم له ذلك انتفع بما يكون فيه من عوامل البقاء والصحة والاهتداء.

وآخر رحلتك تكون إلى نفسك. ولعلها أن تكون قد ظلت في محور استقطابها وبقيت في صراطها المستقيم بينها وبين الله مطمئنة ثابتة حتى تبلغ الوادي المقدس. تهنأ فيه بظلال وارفة من الهدوء والرضا. وتكون فيه بمنأى عن الندم.

ولعلها أن تكون قد حادت عن جادة الحق وأنت لا تدري متى كان خطؤها حين أخطأت. وفيم كان اعوجاجها يوم ضلت. وكيف غاب عنها أن تعود إلى الصراط المستقيم وكانت منه قريبة جدّاً في أول الأمر.

١١

وفي أول عهدك بالحياة تكون نفسك ضعيفة مترددة. ثم تقوى حين تتعهدها بما تزيد به رشداً.

ومما تقوى به نفسك التأمل في أمور الغيب. وهو نوع من التعبد لا يقدره الناس حق قدره. يحسبونه غير ذي أثر في حياتهم. ولا يعرفون أنهم حين يغفلون البحث في أمور النفس ينتهي بهم الأمر إلى الجهل بلغة التطهر. فلا يرون نذر الضلال حين يقتربون منه.

والعبادات من هذا التعبد. ولا أعرف ديناً ليس من أصوله الصلاة والدعاء. والمصلون يتفرغون للتأمل بعض الوقت.

ويتعرفون لغة الطهر . ويتحدثون بها إلى أنفسهم في فترات متقاربة . وغيرهم يظل في غمرة الحياة الخارجية فإذا طال بأحدهم الأمد نسي كل حديث عن الخير والشر والغيب . وقد يستهزئ بهذا كله وبظنه جهلاً وسفهًا . والغرم في ذلك عليه وحده ؛ لأن هذا الجهل يحرمه أجمل ما في الحياة . حتى إذا حاول أن يعود إلى الطهر وجد ذلك عليه مستحيلاً .

* * *

ومن عوامل الهدى أن تتعود العمل الصالح ، وليس لك أن تستهين بالأعمال الصالحة حين تكون هينة لا مشقة فيها وحين لا يكون فيها فوات نفع كبير . وذلك أن المرانة على الخير تجعله على الناس أيسر كما أن عمل الشر يجعل التمادي فيه أسهل ، وقد يكون تعود الخير أصعب من تعود الشر ، وليس ذلك لأن الشر أصل فينا كما يقول المتشائمون ، وإنما يرجع ذلك إلى أن عوامل الشر أقرب وأقوى ولو لم تكن كذلك ما حاد الناس إليه عن جادة الحق .

وقد يضعف من قدرتك على الاهتداء أن تجد تناقضًا بين ما يأمرك به اهتداؤك وما تحتمه عليك القوانين البيولوجية والفسيولوجية . ولعل هذا أصعب ما يعترض المهتدين حين يستمسكون بالصراط المستقيم . وهم يعبرون عن ذلك بقولهم إن الجسد أصل الشر وإن النفس أصل الخير .

وهذا تبسيط للمشكلة لا يدل على حقيقة أمرها. والواقع أنه ليس هناك تناقض بين ما تأمر به صحة النفس وما تأمر به صحة الجسم. والهدى لا ينهى عن شيء فيه صحة الجسد. وإنما ينهى عن الفوضى.

النظام أصل في التكوين النفسي وهو أصل في التكوين الجسمي. والفوضى أصل الاضطراب في الحالين. أليس الصدق نظامًا والكذب فوضى؟ ثم أليس الولاء نظامًا والخيانة فوضى؟ وكذلك العفة نظام والعهر فوضى. واحترام حياة الناس نظام والقتل فوضى. هذا قانون طبيعي لا خلاف فيه. وإذا نظمت رغبات جسدك ونزواته فبقاؤك في الوادي المقدس والصراط المستقيم أمر طبيعي.

وقد يكون الزهد ضمانًا لتطهرك ولكنه ليس شرطًا له. والبعد عن الناس يباعد بينك وبين عامل قوي من عوامل الضلال. ولكنك في غنى عن هذا العنف على نفسك لو هذبت رغباتك وأخضعتها للتطهر. وليس هذا مستحيلاً.

١٢

وقد لا يعجبك بعض أمر المتطهرين دينًا. فيصرفك ذلك عن التدين تحسبه لا ينتهي إلى غير هذه الحال. وقد لا يعجبك ما تراه في حياتهم من السلبية. وأكثرهم يعني بتجنب الشر أكثر من

عنايته بعمل الخير. وقد يحملهم ذلك على تجنب حياة الناس، وقد لايروقك هذا الزهد والانصراف. ترى أن يحرمك كثيراً من جمال الحياة. وقد ترى أن ما في المتدينين من عزم وقوة لا يتعلق إلا بكبح نزعاتهم ورغباتهم. ولا يفيد منه أحد سواهم.

وليس التدين والتطهر به مقصوراً على هذا وحده.

والتطهر دينًا يكون بالتمتع بكل ما فيك من قوة وما في الحياة من جمال على أن تتجه بهذه القوة وهذه النزعات جهة الخير.

فالتدين عند المتطهرين أصله إيمانك إيمانًا بالغًا قويًا بما تؤمن به، وفي هذا الإيمان خير لك وخير لمن حولك.

والتدين عند غير المتطهرين أصله إيمان مزعزع فيه ضعف يحتاج إلى تقويته بالإسراف والشطط. ومظهره القسوة على مخالفي عقيدتك. والكره لمن لا يدين بما تدين به. والعمل على القضاء على كل من يرى رأيًا غير رأيك، كأنك معصوم أو كأنك تعلم إرادة الله. وأكثر ما تعلم منها إرادتك وحدك وأكثر ما تكره من مخالفيك في العقيدة أن يكونوا خيراً منك في بعض أمور الدنيا.

والوطنية عند المتطهرين أن تعمل على خير قومك. وأن تضحي ببعض مزاياك في سبيل تحقيق السعادة والأمن لمواطنيك فهي في جوهرها حب.

والوطنية عند غير المتطهرين أن تكره جيرانك كرهًا يحملك على إيذائهم وأن تحسب ذلك مظهر حبك لمواطنيك. وأصله أن

الكره فيك أقوى من الحب وأنك حين تكره أحدًا تزين لنفسك أن هذا حب للأقربين. وقوة كرهك تحملك على أن تسمي مخالفيك ومخالفي قومك أعداء. والعداوة صورة من صور الكره وليست من صور الحب. والوطنية على هذا المعنى أصل شر كثير لا داعي له. فالوطنية عند غير المتطهرين جوهرها كره. وعند المتطهرين حب.

والحرية عند المتطهرين أن لا يعوقك أحد أو شيء عن أن تستمتع بتحقيق ما فيك من ميزات. إلا أن يكون في ذلك أذى لغيرك.

والحرية عند غير المتطهرين أن تستمتع بكل ما يستمتع به غيرك. وأن تحرم الناس حريتهم حتى يتهيأ لك أكبر قدر من الحرية. وحد الحرية عندهم ألاَّ تتقيد بشيء إلا أن تكون مرغمًا على هذا التقيد، وحريتك على ذلك ظلم منك لغيرك لا يحده إلا ظلم غيرك لك.

والشرف والعزة والكرامة عند المتطهرين ألاَّ تفعل ما لا يليق بك، وأن تفعل ما تسمو به نفسك وما تشعر إزاءه بالرضى عن نفسك.

وهي عند غير المتطهرين أن تظهر تفوقًا على غيرك تحرمهم به شرفهم وعزتهم وكرامتهم، وتحسب ذلك يرفع من قدرك وفضلك. وقد ترتكب في سبيل ذلك رذائل واضحة. ولكنك

تزينها لنفسك أنها تحفظ لك كرامتك وعزتك. وما هي إلا دليل آخر على ما فيك من نقص.

١٣

ولعلك تود أن تتبين يقينًا أين يقع الحد الفاصل بين الحماسة التي قوامها الإخلاص وبين التعصب الذي يقوم على توهم الإخلاص.

والفرق بينهما واضح جدّا. فالحق هو كل ما كان الدافع إليه حبك شيئًا بعينه حبّا خالصًا، والباطل هو كل ما كان الدافع إليه كرهك شيئًا بعينه كرهًا شديدًا وإن كان ما تكرهه شرّا.

والناس يخلطون بين هذين الأمرين يحسبون أن حب الخير وكره الشر سيان. وأن كلاّ منهما يدل على الإخلاص. والواقع أن الفرق بينهما بعيد عميق.

حب الخير لا يؤدي إلا إلى الخير. وكره الشر قد يؤدي إلى الخير في أول الأمر ثم تغلب عاطفة الكره.

وحب الخير يهدي ويطهر وتزيد به النفس اطمئنانًا. والإسراف فيه لا يؤذي أحدًا.

وكره الشر يؤدي إلى الضلال آخر الأمر. والإسراف فيه يؤدي إلى إيذاء من تكره. وهو شيء لا تطهر به نفسك ولا تطمئن إليه اطمئنانًا جميلاً.

وأظهر ما يكون ذلك الفرق في أمور العقيدة. فالمؤمن الحق يحب المؤمنين. والمؤمن المتعصب يكره مخالفيه. وأكبر ما شاب التاريخ الدنيوي للأديان جاء من هذا الخلط. بل قد يكون العنف الذي حمل المؤمنين على تعذيب مخالفيهم دليلاً على ضعف في ثقتهم بعقيدتهم. وفي قدرتهم على مقاومة الزيغ. وكأنهم يقولون إذا كنا نحن المؤمنين في غير مأمن من الزيغ فكيف تكون حال من هم أضعف منا إيمانًا إذا تعرضوا لعوامل الخطأ في العقيدة؟ على ذلك يكون التعصب والعنف في عقاب الهرطقة دليلاً على ضعف الإيمان لا على قوته.

وكذلك الحال في غير أمور العقيدة. فالذين يحبون الجمال خير من الذين يكرهون القبح. والأولون يبدعون أعمالاً جميلة والآخرون تظل عاطفتهم عقيمة. والذين يحبون الفقراء والضعفاء والمساكين خير من الذين يكرهون الأغنياء والظالمين، والأديان كلها تحرص على حب المساكين. وانفردت المسيحية بقولها إن دخول الغني مملكة السماء أصعب من دخول الجمل في سم الخياط. والمسيحية لا تأمر بالكره. وليس قولها هذا إلا تأكيداً لما يقع فيه الساعون إلى الغنى من خطايا وذنوب.

الهدى والضلال

١

الهدى أن تظل في صراطك المستقيم. وهو الخط الذي يصل بينك وبين الله رأسًا في غير اعوجاج. تعرفه من نفسك معرفة لا ريب فيها؛ لأنك تكون فيه مطمئن النفس. على حين أنك إذا كنت في غير الصراط المستقيم فلن تستمتع باطمئنان حق. والنفوس لا تخطئ في تقديرها ما هي عليه من هدوء أو قلق.

والهدى أوله نفسك ونزعتها الفطرية إلى الاهتداء. وآخره بلوغك الوادي المقدس.

ونفسك مهتدية أبدًا بفطرتها. وهي بالغة غاية الهدي إذا تعهدتها فقويت فيها القدرة على مقاومة عوامل الضلال. ولا يضلها إلا أن تضعف عن مقاومة هذه العوامل الطارئة عليها.

ويقوي فيك القدرة على الاهتداء التأمل والمرانة على العمل الصالح والعبادات والزهد. حسب ما ركب في نفسك من طباع.

ويضعف قدرتك على الاهتداء أدواء في النفس تصيبها من أثر الحرمان أو الملل أو الهمود.

* * *

والضلال أن تحيد عن فطرتك التي جُبلت عليها فتتجه إلى غير الخير. وخروجك عن صراطك المستقيم لأي غرض مهما يكن جميلاً يعد من الضلال؛ لأنه ينتهي آخر الأمر حتماً إلى غير الله.

٢

أول الضلال حيرة بين أمور تستقطبها. فلا تعرف ما تهتدي به ولا من تستهدي. وهو الشرك. وآخره أن تأتم بغير الله صراحة وعمداً. وهو الكفر في أبشع مظاهره.

وأول الضلال أن تسير مع الركب. وأن تستيسر ما يعمله الناس من حولك. تسعى إلى ما يسعون إليه. عاملاً على أن تتفوق عليهم في ما يتنافسون فيه، وهو داء الأذكياء.

وآخره أن تقود الركب وتسوقهم إلى عمل ما يحبون. وأنت تظن أنك تحملهم على عمل ما تحب. وأنت في الواقع فريسة لرغباتهم وشهواتهم حبّاً في بقائك مقدماً فيهم، وهو داء الجماعات.

والعوامل الخارجية التي تؤدي إلى الهدى أو الضلال عوامل دنيوية قريبة من الناس. تؤثر فيهم تأثيراً قويّاً فتوجههم شطرها. وقد تطغى في ذلك على النزعات الطبيعية.

هذه المؤثرات الخارجية كثيرة جدّاً. وقد تضل وقد تهدي. وليس ذلك لما يكون فيها من حق أو باطل. والمؤثرات قد يضل بها الناس وهي حق. وقد يهتدي بها الناس وهي باطلة. والعبرة في ذلك بموقعها من النفس. فإن وقعت في صراطها المستقيم فذلك هو الهدى. وإن عملت على الانحراف عن هذا الصراط فذلك هو الضلال.

وقد تهتدي النفوس وهي ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هي الحال عند البدائيين. وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث في محاكم التفتيش. وليس للهدى والضلال معيار إلا المعيار النفسي البحت.

٣

ما أكثر الأشياء التي ضل بها الناس قديمًا. وما أكثر ما يضلون به اليوم.

وأكثر ما يكون الضلال حين يستهدي الناس شيئًا غير الله. وهو الشرك بأوسع معانيه.

ومن الشرك ما هو ظاهر ومنه ما هو مقنع.

والشرك الواضح يكون بعبادة الأوثان أو تقديس بعض الحيوان تقديسًا فعليّا لا رمزيّا. وهو خاص بالبدائيين. ومن السهل أن يتخلص الناس منه حين يرتفعون عن البدائية الأولى. ولم يعد له شأن في العصر الحاضر.

وإنما الخطر كل الخطر في الشرك المقنع. الذي لا يحسبه الناس شركًا. وذلك حين يضعون نصب أعينهم أمورًا تخرج بهم عن صراطهم المستقيم. وقد تكون هذه الأمور مبادئ سامية جدًّا. وقد تكون تحقيقًا لفضائل لا نزاع فيها. وقد تكون اتباعًا لرجال صالحين أتقياء. ثم لا يمنع ذلك أن يضل بها الناس. هذا هو الضلال الذي يشبه الهدى وهو أشد الضلال خطرًا.

والله لا يأمر بالشر أبدًا. وإنما يأمر بالخير والسلم والحب. وكل ما يحملك على غير ذلك شرك بالله ولو حسبته إطاعة لأوامره.

والذين يؤذون الناس في سبيل العقائد الصحيحة. والذين حرقوا الزنادقة أحياء. والذين يبالغون في القسوة على مخالفيهم في العقيدة يظنون أنهم يرضون الله بهذا الشر الذي يعملونه. والله لا يرضى عن الشر أبدًا. فهم ضالون وإن طابت نفوسهم وحسنت غاياتهم. والحد الفاصل بين الهدى والضلال أن لا يضار أحد بعمل تعمله.

وإذا كان الناس قد ضلوا بهذه العواطف السامية فضلالهم بما دون ذلك أقرب. وما أكثر ما ضل الناس بالوطنية والتضحية والكرامة حين حملتهم هذه العواطف على أن يرتكبوا ما لا يرضون عنه في قرارة نفوسهم ظنًّا منهم أنهم يطيعون الله. وهم يشركون به في الواقع؛ لأنهم يهتدون بمبادئ لا تقع في صراطهم المستقيم.

٤

وليست هناك فضيلة لم يضل بها بعض الناس في عهد من عهود حياتهم. والفضائل الضالة التي تؤدي إلى إيذاء غيرك مصدر كبير للشر؛ لأن مظهرها الكريم يخفي باطنها المظلم. وهذه هي الأوثان الحديثة التي يعبدها الناس من دون الله. واتباعها شرك من غير شك حين تدعو في آخر الأمر إلى معصيته في أعظم أوامره للناس أن يحب بعضهم بعضًا.

ومن العوامل الفعالة في هداية الناس أو ضلالهم أن يتبعوا رجالاً بعينهم يطيعونهم في ما يأمرونهم به، وفي كل عصر رجال فيهم قدرة بالغة تؤثر في من حولهم فتحملهم على الطاعة مختارين أو مرغمين راضين أو كارهين.

وأكثر الناس حين يتبعون رجلاً صالحًا يظنون أنهم مهتدون حتما إذا ساروا وراءه. وهو خطأ قديم. ذلك أن المتبوع الصالح يكون في صراطه المستقيم. وهو مصدر هداية لك إذا وقع منك في صراطك المستقيم. فإن كان أثره فيك أن تتجه إليه فتنحرف عن صراطك الفطري فذلك أول الضلال بالنسبة إليك.

وليس اتباعك رجلاً صالحًا ضمانًا لك أن تسير دائمًا في طريق الخير. إلا أن يكون متبوعك نبيّا معصومًا. والعصمة في الأنبياء أنهم لا يحيدون عن الصراط المستقيم أبدًا. وفضلهم على غيرهم

من الصالحين أنهم يحققون الهداية لأكبر عدد من الناس. يؤثرون في نفوس طائفة كبيرة من النفوس أثرًا يوجههم دائمًا إلى الله.

والنبي بشر مثلك. وهو بهذا الوصف أقرب إليك وأشد أثرًا في هدايتك إلى الخير الذي فطرت عليه. والاهتداء به أسهل على أكثر الناس من الاهتداء بالمجردات الغيبية.

وقد لا يروقك كثير مما يقول به المؤمنون في أمر النبوة: وقد لا يعجبك حديث المعجزات. وقد يدهشك أن ينقطع خبر السماء عن الناس في العصر الذي تعيش فيه.

ومن الخطأ أن يمنعك شيء من هذا عن الاهتداء بالنبوة. ولتأخذ من صفات النبوة ما يقوي به إيمانك وتتطهر به نفسك. فإذا كان الإيمان بالمعجزات يقلقك فمن التطهر ألاَّ تتعرض لها أبدًا. وليؤمن بها من تزيد إيمانه قوة. وليتصورها كل إنسان على النحو الذي يقوي به إيمانه وتطهره.

وليس عجيبًا أن ينقطع خبر السماء؛ لأن كل وسيلة يمكن أن يهتدي بها الناس على اختلاف مشاربهم أوضحها الأنبياء وضوحًا تامًّا. وليس في الناس من يحتاج في اهتدائه إلى معتقدات جديدة أو إيمان جديد. وإنما يحتاج الناس في هذا العصر إلى فهم جديد وتعبير حديث عن المعتقدات التي بيّنها الأنبياء من قديم الزمان.

٥

إذا سلمت نفسك من الشرك بأنواعه. وإذا استقطبت الخير في ثقة واطمئنان. وإذا اشتدت في نفسك قوة الاهتداء. والقدرة على مقاومة عوامل الضلال. إذا حدث لك ذلك فقد تهيأت نفسك للسعادة والرضى والطمأنينة.

ورضاؤك عن نفسك هو السعادة.

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تهذب أثر الحوادث التي تقع حولك في نفسك. وإلا أن تهذب الأثر الذي تحدثه أعمالك في من حولك.

ومن الطبيعي أن تقابل ما يعمل الناس بك بالمثل. تقابل الإحسان بالإحسان أو بالعرفان أو بالشكر. وأن تقابل الشر بالشر والظلم بالظلم. هذا هو رجع الفعل الطبيعي.

ولكنك إذا أردت أن تسمو فوق هذا. وأن تهذب الأثر الذي تحدثه في حياتك أعمال الناس فلك أن تأخذ بمذهب الخد الأيسر إن استطعت أن تروض نفسك عليه. وهو المذهب المسيحي المعروف الذي لا يطيقه إلا الأقلون.

ومذهب الخد الأيسر هو مقاومة الشر بالخير. والنفوس التي تستطيعه تبلغ به غاية الكمال. ولكن التطهر به له شروط إن لم تتحقق فلا طهر فيه.

ولا يتطهر به صاحبه إذا كان مصدره الضعف أو التخاذل أو العجز. عند ذلك تكون مقابلة الشر بالخير إرهاقًا للنفس. وكبتًا للرغبة في مقابلة المثل بالمثل. وفي هذا الضغط على النفس ضرر كبير.

ولكنك إذا اتبعت مذهب الخد الأيسر راضيًا مطمئنًا. وإذا كان مصدره إيمانك بأن الظالم رجل ضل طريق الهدى. وأنه يدل بظلمه لك على أنه أضعف من أن يكون عادلاً. وأن القسوة دليل على أن مرتكبها أضعف من أن يكون رحيمًا. وإذا كان مصدره أنك حين تدير للظالم خدك الأيسر تكون قد بينت له شناعة الظلم. وإذا كنت تعتقد أنك حين تفعل ذلك تضع نفسك فوق العواطف الحيوية البحتة. فهذا هو التطهر. وهذا هو السمو النفسي. عند ذلك يكون مذهب الخد الأيسر جماع الخير في علاقتك بالظالمين.

أما تهذيب ما تعمله بالناس فأمره إليك. ويكون ذلك بامتناعك عن إيذاء غيرك إلا أن يكون في ذلك دفاع عن نفسك. وهذا أمر نادر. والناس يخادعون أنفسهم حين يظنون أن من الدفاع عن النفس أن تبادر بالظلم قبل أن يظلمك غيرك. وإذا آذيت غيرك لتكسب خيراً لا يضرك كثيراً ألاَّ تكسبه فذلك من الشر الذي تستطيع أن تتجنبه. وفي ارتكابه إيذاء كبير لنفسك.

ولا يغرنك أن يكون أكثر الناس على غير هذا الرأي. ولا يحملنك التشبه بهؤلاء على أن تعمل ما لا ترضاه نفسك لو كان الأمر إليك وحدك. ولا يخدعنّك ما يقال من أن سنة الطبيعة أن

يغلب القوي الضعيف. وأن التنافس من طبيعة الكائنات الحية. فالواقع أن الحيوانات تتقاتل لتحصل على غذائها. وقد ارتفع الإنسان عن ذلك فجعل العمل وسيلته للحصول على غذائه. واستبدل العمل بالتقاتل. والذين يكسبون عن طريق القوة إنما يتشبهون بالحيوان والذين يكسبون عن طريق العمل هم وحدهم الجديرون بالإنسانية.

٦

ولم يستطع أحد حتى الآن أن يجد سبيلاً يؤدي إلى تطهر الجماعات. والأديان التي تطهر بها الإنسان إلى أكبر حد لم تنجح في تطهير جماعات المتطهرين بها مهما يكن إخلاصهم لدينهم قويّا.

وبنو إسرائيل ضلوا وفيهم موسى وهارون. والمسيحيون لم تتكون لهم جماعات واضحة إلا بعد وقت طويل، فلما تكونت اعتدى بعضهم على بعض. واعتدوا على غيرهم. ونبذوا كل تعاليم الطهر المسيحي. وكانوا يبررون عملهم بأنه نصر للعقيدة الصحيحة. والمسلمون لم يبق فيهم للتطهر الجماعي إلا قليلاً ثم انشقوا وتقاتلوا وبغى بعضهم على بعض.

ولن تمتحن بشيء أقسى على نفسك من الحيرة بين ما يمليه عليك ضميرك وبين ما يحملك عليه ولاؤك للجماعة التي تنتمي إليها.

ولا يريد أحد أن يحضك على مقاومة الجماعة حين يحملك الولاء لها على ما يرضاه ضميرك. وليس عليك كبير خطر نفسي إن خضعت لما يقتضيه هذا الولاء. ولكن الخطر الأكبر على نفسك أن تخدعها فترى أن ما أمرتك به الجماعة حق. وأخطر من ذلك على نفسك أن تشك في ضميرك فتقول لنفسك أأكون وحدي على حق وهؤلاء جميعًا على ضلال.

ولتكن على ثقة أن ضميرك أقرب إلى الهدى وأن ضمير كل فرد في الجماعة مثلك في قربه من الهدى. ولا يخامرك الشك في أن الجماعة على ضلال إذا خالف أمرها ضميرك. فإذا خضعت لأمرها فليكن خضوعك عن علم بما في الجماعات من ضعف لا يسمو بها إلى التطهر الذي يستطيعه كل فرد فيها.

وحين يجتمع الناس يؤثر كل منهم في الآخر ويكون الانحراف عن الصراط المستقيم أمرًا محتومًا. إلا أن تعمل في الجماعة قوة غالبة يتجه إليها كل فرد وتكون واقعة في هذا الصراط.

ولا يمنع الجماعة من الضلال أن يكون كل فرد فيها مهتديًا؛ لأن الاستقطاب الجماعي لا قانون له ولا يمكن العمل على أن تتجه الجماعة كلها إلى الخير. وكلما زاد عدد الجماعة كان اهتداؤها أضعف. وضلالها أقرب. وهي في ذلك تكون أقرب شيء إلى العواطف الحيوية البحتة. ومن ثم كانت قوانين الجماعات قريبة جدّا من قوانين الحيوانات الضارية.

وهداية الجماعة أمر بعيد إلا بالقوة، والقوة تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى الظلم والضلال. والوقاية من أثر الجماعة في الناس لا يكون إلا بالحيلولة بينها وبين القدرَة على افتراس مخالفيها. ولا يكون هذا إلا بتغيير عظيم في النظام الاجتماعي كله.

٧

وقد يباح لك أن تضل مع الناس حين لا يكون لك عن ذلك مناص.

ولكن لا يباح لك أن تضل بالناس. وأن تؤمن بما تؤمن به الجماعة التي تنتمي إليها إلا أن يطابق أمرها لك ما يوحي به إليك ضميرك وهو نفسك المهتدية.

وسيتحدثون إليك عن طبيعة القطعان وأن نظام القطيع في الحيوانات الكبرى ضروري لحياة أفرادها وأن الناس مثل الحيوان في ذلك لا تستقيم حياتهم إذا تجاهلوا قوانين الجماعة. وفي هذا بعض الحق حين يتعلق الأمر بالحياة البيولوجية. أما حياة الإنسان النفسية فهي أتم ما تكون حين نتخلص من أثر الحياة الجماعية فينا. والجماعة أدنى من الفرد خلقًا. وأبعد منه عن الخير، وأقرب إلى الاندفاع إلى الشر شأنها في ذلك شأن الحيوانات الضارية أو شأن القطيع المندفع.

٨

ولا يدعوك أحد أن تنكص على عقبيك حين تقدم الجماعة التي تنتمي إليها على أمر فيه عليك خطر فهذا لا يليق بك. ولا يدعوك أحد أن تقصر في ولائك حين ترجو جماعتك أن يكون ولاؤك لها كاملاً، ولا يجدر بك أن تنال خير الاجتماع وتنأى بنفسك عن مخاطره حين يحلو لك ذلك، ولعلك لا تخطئ كثيراً إذا رأيت أن تخلص في ولائك لجماعتك وأنت تعلم أنها على ضلال. وعلمك بضلالها لا يعفيك من الولاء لها، ولكنه يهيء لك ولأمثالك ممن هم على رأيك أن يخففوا من غلواء الجماعة ويكبحوا جماحها دون أن يفتوا بذلك في عضدها، وهذا العلم يرضيك بعض الرضى ويقوي فيك القدرة على الاهتداء بضميرك حين يأتي الوقت الذي تكون الطريق إلى ذلك ميسرة.

هذه الحيرة بين الضمير والواجب أكبر المشاكل النفسية. ولن يحلها تطور الضمير فهذا مرجعه إلى طبيعة النفس وهي ثابتة وتطورها يتم على آلاف السنين مثلها في ذلك مثل التطور البيولوجي، وإنما يكون الحل عن طريق الفهم الحق للجماعة: طبيعتها وحدودها وحقوقها ومعرفة ما يجتمع عليه الناس وما يربط أفراد الجماعة بعضهم ببعض.

وقد بيّنا أنه ليس من طبيعة الجماعة أن تستقطب الخير ولو كان كل أفرادها مهتدين؛ لأن كلاّ منهم يعمل في الآخر فيحيد به عن

صراطه المستقيم، ويندر في الجماعات أن يكون أفرادها مهتدين اهتداء قويّا إلى حد لا يؤثر فيه بعضهم في البعض الآخر، في هذه الحال وحدها تهتدي الجماعة باهتداء أفرادها، وهو أمر نادر في التاريخ لم يحدث إلا في أول عصور الدعوات الدينية الكبرى وإلى أمد قصير.

أما أكثر الجماعات فاجتماعها يكون على شيء يسير. اجتماع قلق لا يدل على أن طبيعة أفرادها واتجاههم واحد، ولذلك يضل منهم من يضل، ويحيد أكثرهم عن الحق، ولا يمكن لنا أن نثق باهتداء الجماعة إلى شيء بعينه اهتداء يمكن الاطمئنان إليه والتنبؤ به اعتماداً على درس طبائع أفرادها.

وحيث يكون اجتماع الناس تنشأ بينهم تيارات بعينها وأكثر الجماعات تتشابه في هذه الانفعالات التي تنشأ من أثر الاجتماع وحده، كائنًا ما يكون غرض الاجتماع أو طبيعة المجتمعين، واجتماع الأولياء والصالحين لا يختلف كثيراً عن اجتماع رجال السياسة أو رجال الأعمال حين يجتمعون. لا يختلفون كثيراً في الانفعالات التي تنشأ بينهم. فيكون دائمًا بين المجتمعين الداعون إلى الإقدام والداعون إلى التريث والمترددون. ويكون بينهم ذوو الشخصية القوية والمتخاذلون، والذين يتحدون الرأي السائد والذين يسيرون معه، ويكون بينهم المعارضون بطبعهم والمسالمون، والذين يحدد سلوكهم المقاومة والذين يحدد سلوكهم المسالمة.

هذا في الجماعات الصغيرة. أما في الجماعات الكبيرة فطبيعتها واحدة يحدوها الشطط والإسراف والطغيان ولا يردها إلا القمع والخوف.

ومن الواضح أن الفرد وضميره ليس لهما على هذه الطبيعة في الجماعات سلطان ولا يرجى إصلاح كبير لهذه الطبيعة عن طريق تهذيب الأفراد أو تقويم نفوسهم.

وقد يكون من أنجح الوسائل التوفيق بين الفرد وضميره وبين واجبات الجماعة أن نعمل على الحد من سلطان الجماعة ويكون ذلك بتقليم أظفارها وحماية الفرد من سطوتها، وقد يكون هذا آخر المطاف في رفع الحياة الجماعية إلى المستوى الخلقي الرفيع الذي يستمتع به الفرد حين يتطهر، ولكن هذا يحتاج إلى تغيير كبير في النظام الاجتماعي كله. إذ لا يعرف أحد كيف يمنع انتقام الجماعة من مخالفيها وهي على ما هي عليه اليوم من سلطان جارف.

٩

وقد تكون أقرب الوسائل إلى الإصلاح أن نبحث في الأمور التي يرتبط بها الناس حين تتكون فيهم جماعة ما.

والروابط التي تجمع بين الناس فتكون جماعتهم كثيرة جداً. فقد يجمع بين الناس أنهم من قارة واحدة، وقد يجمع بينهم أنهم من أهل ضاحية واحدة، وقد يجمع بينهم تاريخ يمتد آلاف

السنين، وقد يجمع بينهم ما حدث لهم بالأمس القريب، وقد يربط أفراد الجماعة أملهم في نفع عاجل أو توقع فائدة تصيب أحفادهم بعد أمد طويل، وقد يجمعهم ترقب شر قريب أو الخوف من خطر بعيد الاحتمال. وقد يجمع بينهم حب شيء واحد ولو كان جمع طوابع البريد، وقد يجمع بينهم كره شيء واحد، وقد يجمع بينهم لون جلدهم. وينقسم الناس تبعًا لهذه الروابط إلى جماعات لا حد لعددها. وأكثرها تقسيم خطأ لا أصل له من طبيعة المجتمعين. من ذلك اختلاف اللون، فهو أمر لا يتعلق إلا بالقشرة العليا من الجلد لا يعدوها، ولا يصلح هذا أساسًا لتقسيم الإنسانية إلى أقسام يعادي بعضها بعضًا. والقول الفصل في تحديد الجنس يرجع إلى طبيعة الشعر وقطاع كل شعرة، وهو تقسيم أعجب من التقسيم الذي يقوم على اللون، وقد يقال إن هذا ليس إلا صفة واحدة تدل على صفات أعمق هي موضع الخلاف. والواقع أن هذا الخلاف العميق الذي يحسبونه مسوغًا للتطاحن لا وجود له حين تبحث حقيقة أعماق النفوس. عند ذلك تجد في كل فريق ما تجده في نفوس الفريق الآخر.

والخطأ في تقسيم الجماعات على أسس ضعيفة من هذا الطراز يؤدي إلى خطأ في فهم الاجتماع. كما يكون الخطأ في تقسيم الأشياء مصدرًا لأخطاء علمية بالغة الأثر، وقديمًا قسم العلماء الأشياء إلى ماء وهواء ونار وتراب، وضل العلماء بذلك ضلالاً بعيدًا لم ينقذنا منه إلا العدول عنه إلى ما هو تقسيم حق يقوم على أسس طبيعية. ومن هنا كان حتمًا علينا إن أردنا أن نفهم الاجتماع

أن نبحث في روابط الجماعات نقسمها تقسيمًا طبيعيًّا لا يتعلق بمظاهر عارضة.

والروابط الاجتماعية أكثرها لا مغزى له وقليل منها ما له مغزى سيكولوجي. وهذه وحدها هي التي تصلح أساسًا للتقسيم. وهي التي تستحق من الناس الولاء.

والولاء صفة من أجمل الصفات الإنسانية وأحبها إلى النفوس المهتدية. وضعف الولاء عيب كبير ونقص بالغ في التكوين النفسيّ. وهو في حياة الاجتماع كالحب في حياة الأفراد فضيلة هي أصل كل فضيلة بل هي الأمر الذي لا يعوضنا عن فقده شيء، والولاء المشوب بالنقص أو الشك لا يطهر النفس طهرًا كاملاً، وكذلك الحب المشوب بالنقص أو الشك لا تسعد به النفس السعادة الكاملة.

ولكن كيف يكون الولاء كاملاً لأمور يناقض بعضها بعضًا. ولمن يكون الولاء. ولأي شيء يكون حين تتعارض ولاءات لكل منها على نفسك حق يجب أن تؤديه، وكيف يكون ولاؤك كاملاً لشيء لا ترضى عنه نفسك. إن أطعت داعي الولاء أغضبت ضميرك، وإن أجبت داعي الضمير أغضبت فضيلة الولاء ولكليهما عليك حق.

ولعلك رأيت أننا ندور حول هذه المشكلة الإنسانية القديمة دون أن نلم بها أو نجد لها حلاًّ. وهذا طبيعي لتعقدها وتشعب تفصيلاتها والظلام المحيط بأكثر نواحيها النفسية.

وأول النور أن نجعل للروابط ذات المغزى النفسي القول الفصل في تقسيم الجماعات التي لها علينا حق الولاء. فنقسم الناس إلى متطهرين وغير متطهرين، وإلى مهتدين وغير مهتدين، وإلى مؤمنين وغير مؤمنين، ثم نقسم المتطهرين إلى من سبيلهم إليه التدين أو الجمال أو العلم، ونقسم المتطهرين دينًا كما بينا من قبل إلى من يقودهم إلى التطهر الخوف من الله أو الحب له أو الأمل فيه، والمهتدين إلى من يهتدون رغبة ومن يهتدون رهبة، والمؤمنين إلى من يرضيهم أن يؤمنوا بالغيب عن شعور نفسي ومن لا يؤمنون إلا عن اقتناع عقلي على ما في ذلك الوضع من تناقض.

هذه أمور ذات مغزى سيكولوجي. أما الروابط الأخرى مثل الوطن والتاريخ فليس لها مغزى عميق إلا من حيث أثرها في التقريب بين الطباع الإنسانية المتشابهة في تكوينها السيكولوجي حين يجمعها وطن واحد أو تاريخ واحد.

١٠

هذا التقسيم النفسي أقرب إلى الحق من التقسيم القومي إلى أوطان أو الاجتماعي إلى طبقات، وقد بينا من قبل كيف نقسم المتدينين إلى موسويين أو عيسويين أو إسلاميين حسب تكوينهم السيكولوجي مهما يكن الدين الذي يدينون به.

وعلى هذا يكون ولاؤنا الأول للجماعات التي تربطنا بها روابط ذات مغزى سيكولوجي أصيل.

ومن الروابط التي تجمع الناس بعضهم ببعض أمور ليس لها هذا الحق البالغ علينا. بل يكون ولاؤنا لها جانبيًا على نحو ما. فإذا كانت الروابط بين جماعة ما دينية فواجبنا أن يكون ولاؤنا لها كاملاً في ما هو ديني. وليس لها أن تطلب منا بناء على ذلك ولاء سياسيًا أو اجتماعيًا. هذا الولاء الجانبي لنا فيه الخيار إلى حد ما، وكذلك إذا جمع الناس مبدأ سياسي فليس لجماعتهم أن يطلبوا ولاء اقتصاديًا أو اجتماعيًا؛ لأن هذا يكون ولاء جانبيًا لنا فيه الخيار ولا يعد تجاهله نقصًا في فضيلة الولاء فينا.

على أن الأولوية في هذه المفاضلة بين حقوق الولاء التي تكون لأنواع بعينها من الروابط التي تجمع الناس ليست ثابتة. فالمجتمعون على رأي بعينه لهم على كل فرد حق الولاء الأول لهذا الرأي. ثم يكون ولاؤهم جانبيًا فيما عدا ذلك من أمور قد تكون عظيمة في ذاتها ولكنها بالنسبة إلى هذه الجماعة تعد في المحل الثاني.

فإذا جمع بين الناس مبدأ اجتماعي فليس لهم أن يطلبوا ولاء دينيًا. ويكون الولاء الاجتماعي هنا أصلاً والولاء الديني جانبيًا. أما إذا تكونت جماعة يربطها رباط العقيدة فالولاء للعقيدة ويكون الولاء السياسي جانبيًا. ومن هنا يكون الظن بأن الولاء يجب أن يكون ثابتًا أبدًا ظنًا لا أساس له من طبيعة الأشياء. بل الحق أن يكون الولاء لشيء بعينه في وقت بعينه.

على أن الجماعة التي يجمل بك أن تخلص لها الولاء كاملاً هي التي تربطك بها أواصر تختارها لنفسك ويرضى عنها

ضميرك. عند ذلك تضيق الفرقة بين ضميرك وواجبك. أما الجماعة التي تقوم على روابط ليست من طبعك ولا ترضى عنها نفسك فليس لها عليك حق الولاء الكامل. وليس عليك أن تخضع لأوامرها إن كان لك عن ذلك مندوحة.

وسواء أكانت روابط الجماعة التي تنتمي إليها محببة إليك أم كانت مما لا تطمئن إليه ولا ترضى عنه فهناك في كلتا الحالين حدود يجب ألاَّ تتعداها في سبيل الولاء لأي أمر يكون. تلك هي حدود الضمير.

١١

التطور الطبيعي للجماعات أن تتضخم يومًا بعد يوم لأن ذلك يزيد في قوتها وسلطانها، ويحقق أغراضها اجتماعيّا وسياسيّا واقتصاديّا، أما التطور الطبيعي للأخلاق فهو إلى نمو الضمير الفردي أقرب. وفي هذا التناقض خطر كبير. ذلك أن سلطان الجماعة في عصرنا هذا أصبح من القوة والغلبة بحيث يستطيع أن يغرق الضمير الفردي حتى لا يكاد يسمع له صوت أو يرى له أثر في الحياة العامة.

وليس في هذا ما يدعو إلى التفاؤل حين نبحث تطور الإنسانية في المستقبل القريب.

أما المستقبل البعيد فقد يكون خيراً مما تظن. وقد يكون ذلك عن طريق تطور الروابط الاجتماعية تطوراً يؤدي إلى تفاهم

الجماعات فلا يكون بينها تقاتل وعداء، وقد يكون التطور عن طريق تفكك الروابط القديمة لتحل محلها روابط أكثر تواؤمًا مع طبائع النفوس. وقد يكون ذلك بتقلص نفوذ الجماعة فلا تكون لها على الفرد تلك القوة البالغة التي لها عليه في هذا العصر.

وليس من السهل أن تحدد علاقتك بالجماعات التي تنتمي إليها. فقد تأمرك الجماعة الضالة أمرًا كله خطأ. ثم يكون خضوعك لهذا الأمر دليلاً على فضائل كامنة فيك كالشجاعة والإخلاص والتضحية. وقد تكون أوامر الجماعة صوابًا ثم يقصر جهدك عن القيام بواجبك، ويكون مصدر هذا الإحجام الجبن أو الأثرة. وقد تزين ذلك لنفسك على أنه إرضاء لضميرك. والناس يخدعون أنفسهم في مثل هذه الأمور. فتضطرب لذلك أحكامهم ويختلط عليهم الحق والباطل والخطأ والصواب.

ويزيد الأمر صعوبة أن الحياة العامة أصبحت معقدة تعقيدًا شديدًا يصعب معه تحديد ما هو خطأ وما هو صواب، وليس في الحياة العامة شيء كله خطأ أو كله صواب. والمفاضلة بينهما قد تكون موضع جدل كثير واختلاف في الرأي شديد لا يثبت به حق أو باطل.

ويزيد في طغيان الجماعة أن ينتمي إليها قوم كثيرون يشعرون أن حياتهم خلو من كل ما يجعل لها قيمة. فهم يدخلون الجماعات زرافات يلتمسون في ظلها بريقًا ينقصهم ويستمدون منها سلطانًا لا يستطيعونه وحدهم، والجماعة تزيد في طغيانهم

وهم يزيدون جماعتهم شططًا، يريدون أن يبلغوا شيئًا من فتات النفوذ والقوة التي تكون للناس مجتمعين.

ولو قدر للناس أن ينقسموا جماعات تربط أفرادها علاقات وثيقة ترجع إلى تواؤم نفسيّ عميق لاستقرت كل جماعة بأهلها ولكان ولاء الفرد لجماعته ولاء ثابتًا دائمًا كاملاً.

١٢

الولاء صفة جميلة محببة إلى النفس. وهو من معدن الحب كلاهما يتطهر به الناس حين يقوم على أصل نفسيّ عميق.

ولا يتطهر أحد بالولاء أو الحب حين يكون أصلها توافقًا عارضًا لا يقوم على دعائم نفسية.

وقد يجتمع الناس على أمر عاجل يفيدون منه. وقد يجتمعون على نزوة طارئة أو شهوة جامحة يلهبها فيهم حدث قريب يخيل إليهم لقربه منهم زمنًا أو مكانًا أنه أمر عظيم وهو تافه، وقد يحملهم هذا الظن على الإسراف في الولاء، ويكون الشطط والحماسة والتضحية حينذاك مدعاة للشر ولا يكون في الولاء تطهر ولا خير.

وقد يكون في ولائك للجماعات التي تنتسب إليها ما يدعو إلى الحيرة. فأنت تريد أن يكون ولاؤك تامّا ثابتًا قويّا؛ لأن ذلك يرضيك ويطهرك. ثم يتبين لك ما في هذا الولاء من تعارض

وتناقض. ولعلك تود أن تهتدي إلى سبيل الحق حين تتناقض دواعي الولاء.

وقد يهديك في هذا الأمر أن يكون ولاؤك على قدر ما تقتضيه منك قوة الأمر الذي هو موضوع الولاء وموقعه من أعماق نفسك.

وقد يكون الولاء أمرًا يقتضيه الواجب وحده. وأكثر ما يجتمع عليه الناس اليوم من هذا الصنف: اجتماع على رأي خطير أو على منفعة عاجلة، أو على ما يجب على أهل البيئة الواحدة من تساند، وقد تجمع بينهم روابط اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية تربط بين أناس يختلفون عقلاً ونفسًا. وليس عليك بأس أن يكون ولاؤك هذا الذي يقوم على الواجب وحده ولاء موقوتًا محدودًا مشروطًا، ويكون مع ذلك ولاء مخلصًا.

ولا يطعن في ولاء الواجب أن يكون موقوتًا بالزمن الذي تدوم فيه رابطته، ولا يطعن فيه أن يكون محدودًا في قوته بما يكون لهذه الرابطة في نفسك من شأن، وقد لا يعنيك الاقتصاد إلا قليلاً فلا يكون عليك أن تضحي كثيرًا في سبيل رابطة اقتصادية، وقد لا تعبأ كثيرًا بالرابطة السياسية فلا يكون عليك أن تضحي إلا قليلاً في نصرة جماعة تقوم على رابطة سياسية، وقد لا تقع الروابط الاجتماعية منك موقعًا قويًا فلا يطعن في ولائك لها أن يكون على قدر.

وولاء الواجب هذا يجب على كل حال أن يكون مشروطًا فلا تتعدى به ما يحتمه عليك ولاؤك لضميرك في الأمور التي تتعلق به مهما يكن الإغراء الذي تتعرض له.

والولاء الذي يقتضيه الضمير أعمق وأقوى وأثبت على الزمن من الولاء للواجب، فإن لم يتعارضا فليس في الأمر حيرة. وإن تناقضا فالولاء للضمير أولى بك ولو أصابك منه أذى قريب.

والعبر في الولاء تكون بقدرته على تطهير النفس فإن لم تتطهر به فارجع إلى نفسك لتتبين أين ضلت بك الطريق واعمل على أن تعدل عن طريق الخطأ الذي قد تكون وقعت فيه بجهالة وأنت لا تريد إلا الهدي.

١٣

والحياة اليوم بلغت حدّا من التعقيد يجعل اتباع سبيل الهدى عسيراً. فقد لا تتبين طريق الحق في ما أنت مقدم عليه. وقد تتبينها ثم لا تستطيع أن تسلكها. وقد تكون الواجبات كثيرة متعارضة والولاء عسيراً غير واضح.

وأصعب ما في الحياة في هذا العصر أن تختار أي أنواع الولاء الواجبة عليك أجدر بك وأيها يستحق منك التضحية والإخلاص.

ولعل سبيل الهدى في هذه الحيرة أن تجعل ولاءك للواجب محدوداً، وأن تجعل هذه الحدود بحيث لا تتعدى ولاءك لضميرك بحال من الأحوال.

هذا الولاء للواجب الذي أدعوك إلى تدبره وقياس قوته ومداه وثباته، والذي أدعوك أن تجعل له حدّاً لا تتعداه. هذا الولاء قد يراه بعض من حولك ولاءً منقوصًا وهو بذلك قد يشبه الخيانة، وقد يخيل إليك أن هذا الوالاء المحدود المشروط لا يرضيك، فالولاء كالحب لا يرضي النفس إلا أن يكون قويّا ثابتًا دائمًا، وقد تظن أن الولاء المنقوص ليس ذا أثر كبير في تطهرك وارتفاعك عن ضرورات الحياة، وأنك لا تستطيع أن تبلغ به واديك المقدس.

والواقع أن الولاء للواجب إذا زاد في قوته عما يقتضيه هذا الواجب وقيمته عندك، وإذا طال أمده عما يحتمه الأمر الذي يربطك بجماعتك، وإذا بقيت عليه بعد أن تنتهي مقتضياته فإن ذلك يكون إسرافًا وشططًا، وهو سر الشر الذي يحملك عليه هذا اللون من الولاء إذا لم تجعل له حدودًا واضحة، ولتكن على يقين أنه ما ظل في هذه الحدود فهو خير، وأنه إن لم يطهرك كثيراً فإنه لا يدنسك إلا إذا اعتراه الشطط.

وللجماعة عليك دين أنها تحميك مما قد تتعرض له من أخطار لا تعرفها، هذا هو الدافع النفسي للاجتماع، ولها حق عليك أنها قد تكسبك مزايا في حياتك لا تستطيع أن تبلغها بدونها وهو الدافع العقلي للاجتماع.

وعلى ذلك لا يكون للجماعة عليك حق إذا تعدت حمايتها لك من المجهول حد الضمير؛ لأن ذلك يؤذي نفسك أكثر مما يطمئنها. وليس لها عليك حق إذا شطت بك عن حد المزايا

التي ترجوها؛ لأن الشطط يضر بعقلك وقدرته على تصريف أمورك.

ولاأنكر أن هذه الدعوة إلى التفريق بين الولاء للواجب والولاء للضمير وقياس قوة كل منهما عليك يكاد يكون هروبًا من المشكلة. ولا أنكر أن قياس سلوكك بهذه المعايير عسير مرهق قد لا تتحمله إذا وقفت تتدبر ذلك في كل أمر يقع لك، ولكنك قد ترى في هذه المعايير عونًا على البت في سلوكك في عظائم الأمور.

١٤

التطور الحديث للجماعات يزيد في تضخمها دون أن يغير من طبعها شيئًا. ولم ينقص من شرها ما تضخمت به. بل لعل هذا التضخم يكون قد زاد من طغيانها. وما تزال أكثر العوامل التي تجمع بين الناس سطحية دائمة التغير. كما تكون الأمواج الصغيرة على سطح الماء، يغير من علوها واتجاهها كل ما يهب عليها من رياح وإن ضعفت. ولم يكن لهذه الروابط الضعيفة القلقة التي قامت عليها كثير من الجماعات منذ القدم أن تؤدي إلى التجانس بين أفراد الجماعة الواحدة ولا أن تؤدي إلى التقارب بين الجماعات المختلفة.

وإنما يؤدي إلى السلم بين أفراد الجماعة الواحدة أن يجمعهم تشابه في أعماق نفوسهم تستقر به جماعتهم استقراراً طبيعيّاً قويّاً.

عند ذلك يرجى أن يؤدي هذا الاستقرار إلى السلم بين جماعات مستقرة مطمئنة. على حين أن اجتماع الناس على أمور عارضة أو حادث بعينه لا يؤدي إلى الوئام بين المجتمعين ولا إلى السلم بين جماعات متباينة.

وإذا بحثنا أعماق النفوس وجدناها أربعة أنواع، فهي إما أن يكون أصل طبعها الهدوء التام أو الكبح الهادئ أو الاندفاع المتزن أو الاندفاع العنيف. والجماعات التي تقوم على تشابه أفرادها في هذه الطباع هي الجماعات السوية التي قد يتحقق بها خير الإنسانية في تطورها الحديث.

والذين من طبعهم الهدوء التام لا يضطربون للأحداث الطارئة. ولا يعنيهم أن يجدوا في حياتهم كل يوم جديداً. وليس من صفاتهم الملل الكثير. هؤلاء هم المحافظون بطبعهم. حياتهم مستقرة نفساً وخلقاً. ولا تعتريهم نزعة قوية إلى تغيير حياتهم ولا تضيق نفوسهم بهذا الاستقرار. هؤلاء تغلب عليهم الحكمة وسداد الرأي ودماثة الخلق وحسن الجوار. وهم الأكثرون في كل أمة وكل عصر. ويغلب على أهل الشرق الأقصى هذا الطبع خاصة.

والذين من طبعهم الكبح الهادئ هم الذين يشعرون بالرغبة في الاندفاع ولكنهم لا يخشون شيئاً خشيتهم أن يؤدي بهم الاندفاع إلى الخطأ أو الخطيئة. وهم الذين يعنيهم الحلال والحرام. وفيهم تقوم الأخلاق الدينية. ومن ذلك ما نراه في الوصايا العشر فإن

سبعًا منها تدعو إلى الكبح الهادئ من حيث هي نواة عن الاندفاع، هذا الكبح الهادئ يجمع بين الحياة النافعة والخلق القويم. وتراه على خير وجه في أهل الثقافة الدينية وخاصة ديانات الشرق الأدنى.

والذين من طبعهم الاندفاع المتزن هم الذين يحبون أن يعملوا ويودون أن تكون حياتهم ملأى بما يثير الرضا في نفوسهم والإعجاب في من حولهم. يحبون الجديد في غير إسراف أو شطط. يشتاقون إليه في غير ملل أو ضيق أو كره شديد للقديم. ولا تراهم يفضلون كل جديد وإن كان قبيحًا على كل قديم وإن كان حسنًا. وهم كثيرون في كل زمان. ويمثلهم خير تمثيل أهل الثقافات الكلاسيكية في الأمم العريقة وخاصة أوج مجدها الثقافي.

والذين من طبعهم الاندفاع القوي هم الذين يريدون كل يوم جديدًا. وأخص صفاتهم الملل ولا يعنيهم أن يكون الجديد الذي يرغبون فيه أدنى من القديم الذي ينبذونه. هذه صفة العصر الحديث وفيها خطر كبير إن لم يحد من شططها قوى المحافظة والاتزان والكبح.

ولو كانت الروابط بين أفراد كل جماعة تقوم على أصل من هذه الطباع لاستقرت الجماعات استقرارًا طبيعيًا قويًا، وهذا الاستقرار يجعل ولاء الفرد لجماعته ولاء قويًا ثابتًا.

على أن ذلك قد لا يتحقق إلا بعد وقت طويل. ولا بد أن يسبقه بحث جدي في تقسيم المدنيات والثقافات والآداب والفنون تقسيمًا يقوم على هذه الطبائع الأربع لا على الفروق الجغرافية أو القومية أو اللغوية كما تفعل الآن.

١٥

الدين يهديك وليس من شأنه أن يهيئ لك الرضا أو المعرفة.

والجمال يرضيك وليس من شأنه أن يهديك ولا يعنيه أن تعرف.

والعلم يعلمك وليس من شأنه أن يهديك ولا يعنيه أن يرضيك.

على أنه ليس بين هذه الأمور الثلاثة تناقض. بل ليس بينها تعارض. ولكل منها حد يجب ألاَّ تتعداه. ولا يقع بينهما صدام إلا حين تختلط عليك آثارها في نفسك فإذا عرفت كيف توفق بين هذه الآثار فلن تشقى بما تراه بينها من خلاف.

والخلاف في الواقع ليس بين الدين وحب الجمال والعلم، ولكنه بين المتدينين وعشاق الجمال والذي يعملون.

وأصل الخلاف ما يظنه أكثر الناس من أن الأخلاص لأمر منها يحول دون الإخلاص للأمر الآخر، والواقع أنها أمور متكاملة، لكلٍّ منها موضع في النفس الكاملة، وهي النفس المتطهرة الراضية العالمة.

الدين غايته الهداية. ومن شأن هذه الهداية أن يملأ الدين كل فراغ في النفس. فهو سرور من لم يعرف السرور عن طريق الجمال. وهو علم من ينقصه العلم عن طريق العقل. هو الهداية كلها حين يكون الجمال والعلم أضعف أثرًا من أن يملأ أحدهما أو كلاهما فراغ النفوس أو يسد حاجتها إلى السرور والمعرفة.

حتى إذا استطاعت النفس أن تحقق حظها من السرور عن طريقه الطبيعي وهو الجمال عند ذلك لا يضير الدين شيئًا أن يترك للجمال أن يعمل في الناس عمله الطبيعي وهو السرور الذي لا تستقيم النفوس حقّا إذا حرمته.

ثم إذا تحقق للناس قدر كاف من العلم عن طريق العقل وهو الطريق الطبيعي للمعرفة. فلن يضير الدين شيئًا أن يترك للعقل تحقيق المعرفة وهي ميدانه الطبيعي.

وقد يكون من الناس من لا يجد من حب الجمال الحسي القدر الذي يتم له به السرور الذي يقيم أود نفسه، عند ذلك يكون واجبًا عليه أن يلجأ إلى الدين يلتمس فيه السرور عن طريق الجمال المعنوي فيستعيض به عن الجمال الحسي.

وقد يكون من الناس من لا يستطيع أن يصيب من العلم عن طريق العقل القدر الذي يرضيه. عند ذلك يكون واجبًا عليه أن يلجأ إلى الدين يلتمس فيه المعرفة الغيبية فيستعيض بها عن المعرفة العقلية.

ولكن العكس غير صحيح. فالمعرفة لا تغني عن الجمال في تحقيق السرور، ولا تغني عن الدين في تحقيق الهداية، وحب الجمال لا يغني عن الدين في هدايته للناس.

على أن هذه الأمور الثلاثة ليست قوى محركة، وإنما هى قوى توجيهية، والنفوس الهامدة لا تعمل فيها القوى الموجهة إلا قليلاً. والملاحون يعلمون أن السفينة المعطلة لا تستجيب لسكانها. وأنه لا بد لها أن تجري فوق الماء حتى تستطيع القوى الموجهة أن تعمل فيها.

١٦

الجمال الحسيّ في جوهره تنظيم لما هو كائن في الطبيعة على غير نظام. فالرقص تنظيم للحركة، والموسيقى تنظيم للزمن على نحو ما، والتصوير تنظيم للألوان والأشكال في بعدين، والنحت تنظيم للأشكال في أبعاد ثلاثة، والشعر تنظيم للكلام المرسل.

الجمال المعنوي تنظيم لأمور معنوية. من ذلك الإيمان فهو تنظيم للأمور الغيبية، والعقائد تنظيم للتعبيرات التي ندل بها على شعور نفسيّ عميق، والفضائل تنظيم لعلاقات الناس بعضهم ببعض، ولن تجد شيئًا جميلاً تطرب له النفس إلا أن يكون منظمًا على نحو ما.

وعلى ذلك لا يكون عجيبًا أن نرى بين الجمال الحسيّ والجمال المعنوي تشابهًا من حيث أثرهما في النفس، ولكن الجمال الحسيّ

أقرب إلى الطبيعة، والسرور به أيسر على أكثر الناس، والذين يحرمونه ولا يستعيضون عنه بقدر كبير من الجمال المعنوي يشقون بهذا الحرمان شقاء كبيراً.

والمتدينون ينقمون من عشاق الجمال أن أكثرهم لا يتطهرون. وأن منهم من يهزأ بالطهر.

وهم ينقمون من رجال العلم إسرافهم في الثقة بما يعملون. وهو بعد علم ناقص يثبت خطؤه كل يوم. فهو بذلك لم يبلغ حد الثبوت الذي بلغته الحقائق الدينية التي يؤيدها أصلها الكامن في أعماق النفوس.

وعشاق الجمال يحنقهم أن يظن المتدينون أن الجمال شر وأنه يؤدي إلى الشر وأن حبه يحمل الناس على الانزلاق في مهاوي الخطيئة.

وعشاق الجمال لا يقنعون بحياة المتدينين وهى عندهم ذات لون واحد «باهت» وأنه لا يسر بها أحد.

ورجال المعرفة ينكرون ما يدعيه المتدينون من قدرة على معرفة ما ليس من شأنهم أن يعرفوه.

وفي كل هذا إسراف من المهاجمين وتقصير من المدافعين.

فالمتدينون يسرفون حين يقولون إن حب الجمال أصل كل ضلال، وإن نزعة النفس إلى اللذة والسرور تدعوهم عاجلاً أو آجلاً إلى تخطي حدود الطهر. ويقيمون الحجة على ذلك بما نراه في كبار رجال الفنون من شطط.

وهذا القول خطأ من ناحيتين. الأولى أنهم يقيسون أثر الجمال في النفوس بما نراه في نفوس صانعيه، والواقع أن صانع الجمال رجل فيه نمو بالغ في إحدي نواحي نفسه، وهذا يحمله على الشذوذ والرغبة في تخطي الحدود، بل علينا أن نقدر حب الجمال بأثره في نفوس المتذوقين. وهو أثر فسيولوجي في النفس - إن صح هذا التعبير - لا تستقيم الوظائف السيكولوجية بدونه. وصانع الجمال لا يتأثر به أكثر من المتذوق له، والفرق بينهما أن الأول أقدر على تنفيذ ما هو كامن في نفسه، بل لعل التطهر بالجمال أكثر في المتذوقين للجمال منه في صانعيه لما في الأولين من اتزان لا يكون في الآخرين.

والخطأ الثاني أن المتدينين يرون أن الطهر أعمال بذاتها يجب أن نعملها، وأعمال أخرى يجب أن نتجنبها، والواقع أن الطهر ليس نوعيّا. وأن أصل الطهر اتجاه نفسيّ صحيح، وعشاق الجمال بهم من الحس المرهف ما يجنبهم كثيراً من السوء والقسوة وإيذاء الناس وإن اختلفت مظاهر هذا التطهر عن مظاهر التطهر الديني، ولن تتطابق هذه المظاهر حتى تكون الخطيئة دائمًا قبيحة والخير دائمًا جميلاً، وهو ما لم يجمع عليه الناس حتى الآن. وكل وسيلة ترفع النفوس عن الخضوع للقوانين الحيوية البحتة تعد وسيلة للتطهر.

والمتدينون قصروا في إظهار ما في الإيمان من جمال قد تطرب له نفوس كثيرة خلقت له، وهم تركوا لغيرهم أن يظهروا ما في

التدين من جمال يدل عليه الولاء والتضحية. فتراهم يتحدثون عن الحق والخير على أنها أمور مسلمة وأوامر تطاع، ويتحدثون عن الشر والباطل على أنها نواه بعينها يجب أن يتجنبها الناس. ولم يعنوا بإظهار ما في الحق من جمال وما في الباطل من قبح. ولم يعلموا الناس كيف يسرون بالحق لجماله وكيف يشمئزون من الباطل لقبحه.

وعشاق الجمال يسرفون في سوء ظنهم بالمتدينين. ولعلهم يرون أنه بعد أن انقضى عهد الجهاد في سبيل الله لم يعد للمتدين في العصر الحاضر إلا قدر محدود من الجمال المعنوي الذي نراه في تاريخ كبار المتدينين الأولين. ومن إسرافهم أن يطربوا لمغامرات آلهة اليونان وينكروا جمال التضحيات التي تعرض لها المؤمنون في أوقات الشدة والمحن.

وقصر عشاق الجمال في تأكيد الجمال النفسيّ الذي يقترن بالحب الحسيّ فيكون به سمو نفسيّ عظيم. فالرجل الذي يحب امرأة جميلة ـ وهو أكمل أنواع الحب الحسيّ ـ يجد أن هذا الحب تتعلق به صفات معنوية جميلة كالولاء والإخلاص والتضحية، والذين يقنعون منه بما فيه من لذة أو نشوة يفوتهم أجمل ما فيه. وحب المرأة الجميلة يظل حبّا ناقصًا تافهًا ما لم تتعلق به هذه المعاني.

والمتدينون يسرفون في سوء ظنهم بالعلم، ينكرون حقه في تناول أمور ليست من شأنه، ويحنقهم على أهله ما في هؤلاء من

غرور، وهم يعلمون أن العلم لم يبلغ غاية الحق في ما هو مهيأ له، فكيف يبلغ الحق في الأمور الغيبية، ولا يريد أحد أن يحمل المتدينين على الإيمان بالحقائق العلمية ولكنهم يحسنون صنعًا إذا استعاروا من أهل العلم مذهبهم في البحث وأسلوبهم في التعبير عما يرونه حقيقة؛ لأن هذا الأسلوب أيسر فهمًا على المحدثين وأقرب إلى تفكيرهم، وليس من المستحيل أن نعبر عن الحقائق الدينية الأبدية بأسلوب علمي حديث.

ولعل هذا البحث كله ليس إلا محاولة أولية لإقامة الحقائق الدينية والخلقية على أساس ما نعلمه عن النفس الإنسانية، طبيعتها وخصائصها وتأثرها بالقوى المختلفة التي تعمل فيها.

ومن المهام التي يجب أن يضطلع بها العصر الحديث أن يثبت الأصل السيكولوجي للدين والأصل الفسيولوجي للأخلاق.

الحَقائق الأبديَّة

١

لعله ليس في دنيا الطبيعة شيء أثبت في الأذهان من تعاقب الليل والنهار. حقيقة عرفها الناس منذ الأزل. وهي ثابتة لا مراء فيها. باقية أبد الآبدين.

وما زال الناس ينظمون حياتهم على أساس هذا التعاقب. يتحدثون عن طلوع الشمس وغروبها، وتعلقت وظائف أجسامهم بل تعلقت حياة النبات والحيوان بظلام الليل ونور النهار.

وأعجب الناس من قديم الزمان بنور القمر وجماله حين يسطع على الأرض أو يختلج فوق سطح الماء، وتحدثوا كثيراً عن نور القمر وأثره في المحبين والشعراء ومن لف لفهم.

واهتدى الناس في أعالي البحار بمواقع النجوم. ومكانها في السماء من حيث ينظرون إليها.

وكان كل هذا النظام يقوم على أن الفلك يدور حول الأرض، ومن ثم كان قولهم أشرقت الشمس وسطع نور القمر واهتدينا بالنجوم.

ثم علم الناس أن الأرض هي التي تدور، وأن الشمس لا تطلع ولا تغرب، وأن القمر لا نور له، وأن النجوم لا تتغير مواقعها وإنما يتغير مكان الذي يرقبها بالنسبة إليها.

ومع ذلك ظل الناس يتحدثون بهذه العبارات، وظلوا يطربون لنور القمر وظلوا يهتدون بالنجم، وسيان عند الناس حين ينظمون حياتهم تبعًا لشروق الشمس وغروبها أن يكون أصل ذلك دوران الفلك أو دوران الأرض، وسيان عند من يطرب لنور القمر أن يكون النور منعكسًا من نور الشمس أو أن يكون القمر منيرًا بنفسه، وسيان عند المهتدي بالنجوم أن تدور الأرض أو أن تتحرك النجوم ما دامت نجاته تقوم على تحديد علاقة النجم بمكان بذاته في وقت بعينه، وهذه التعابير تدل على حقائق لا مراء فيها، وإن لم تعبر عن كيفية حدوث الظواهر الطبيعية، وحين يكون الحديث متعلقًا بأثر تعاقب الليل والنهار على الإنسان تكون هذه العبارات تعبيرًا عن حقائق ثابتة أبدية، وإن لم تطابق الواقع فعلاً.

* * *

وفي دنيا النفس حقائق أبدية، وهي أمور عليا ثابتة دائمة، عليا لأنها بمعزل عن الضعف الإنساني، ثابتة لا يرتفع إليها الفساد الذي يحدثه التغير، دائمة لأن الزمن لا يعمل فيها.

وليس شيء أحب إلى النفس من أن تؤمن بحقائق لها صفات السمو والثبوت والدوام.

ولعل الوادي المقدس لا يكون إلا هذه الحقائق الأبدية حين تطمئن إليها النفس اطمئنانًا تامّا.

ولعل أكبر ما يعني الإنسان أن يهتدي إلى حقائق من هذا الطراز، وأن يطمئن إليها بقلبه كله لا يخامره في صحتها شك.

وقديمًا آمن الناس أن أمور الغيب والدين والأخلاق من هذه الحقائق الأبدية. فرضوا فيها الكمال المطلق من حيث هي بمنأى عن ضعف الإنسان وضلاله، بعيدة عن كل أسباب الفساد، وسموها حقائق سماوية لما ثبت في الأذهان من أن السماء تمثل صفات السمو والكمال وتعبر عنها أصدق تعبير. وهو ما فطن إليه الإغريق حين جعلوا الكون طابقين. ما فوق القمر له الكمال والدوام ولا يعتريه الفساد، وما دون القمر وهو معرض للتغير والزوال.

وكان هؤلاء القدماء يؤمنون أنهم يعرفون السماء معرفة يقينية، يتحدثون عن صعود أشياء بعينها إلى السماء ويتحدثون عن أمور تنزل علينا من السماء، ولم يشكوا أن الهدى يأتي من السماء. فهي لكمالها مصدر كل كمال، إليها تصعد الأرواح ومنها تنزل الملائكة، ومن هنا كان تعبير الأديان جميعًا عن هذه الحقائق بنسبتها إلى السماء. وهي نسبة تجمع كل صفات الحقائق الأبدية من سمو وثبوت ودوام.

* * *

واهتدى المهتدون بهذه الحقائق، ولو خامرهم الشك في صفاتها السماوية ما استطاعوا أن يطمئنوا إليها أو يهتدوا بها، وتعبيرهم عن أمور الغيب بأنها سماوية تعبير حق عن حقائق أبدية يطمئنون إليها، كما كان التعبير بطلوع الشمس تعبيراً حقّاً عن حقيقة ثابتة.

ثم وجد بعض الناس صعوبة في تصورهم نسبة هذه الحقائق فعلاً إلى السماء كما وجد بعض الناس من قبل صعوبة في تصورهم دوران الفلك حول الأرض. هؤلاء في حاجة إلى تصور جديد لما يحدث في عالم النفس البشرية، وهم في حاجة إلى فهم جديد للحقائق الأبدية. يريدون تغيراً في تصورهم لهذه الأمور يشبه التغير الكوبرنيكي في فهم حركة السماء والأرض.

وبذلك تكون هناك طريقان تؤديان إلى إيمانك بالحقائق الأبدية إيمانًا فعالاً. أن تؤمن أن الله أصل الهدى وأن نفسك غايته، أو أن تؤمن أن نفسك أصل الهدى وأن الله غايته. ولك أن تختار أي الطريقين أقرب إلى نفسك. كلاهما يؤدي إلى الهدى، وكلاهما تعبير عن علاقة قائمة بينك وبين الله، وعليك أن تتصورها كما يشاء لك تكوين نفسك.

وإذا اطمأنت نفسك إلى أن الحقائق الأبدية منزلة من السماء فأنت في غنى عن البحث في إثبات سموها وثبوتها ودوامها ويكون قولك بأنها سماوية قولاً صادقًا من كل وجه ويكون اهتداؤك بها طبيعيّا قويّا واضحًا.

* * *

وإن كنت لا تطمئن إلى أنها نزلت من السماء فعليك ـ إن أردت لنفسك اطمئنانًا حقّا ـ أن تجد تصورًا للحياة النفسية يضفى على هذه الحقائق صفات السمو والأبدية والثبوت التي عبر عنها الأولون بقولهم إنها سماوية. ولك أن تقول إن السماوية ليست إلا جماع هذه الصفات.

ولك أن تسأل حينذاك عن تحديد واضح لمعنى الثبوت والدوام والسمو حين لا يكون أصل التحديد أنها سماوية.

* * *

تكوين نفسك أثبت شيء في حياتك. وكل ما يطابق هذا التكوين يعد ثابتًا ثبوتًا قطعيًا بالنسبة إليك، وكل ما يخالف هذا التكوين يكون غريبًا عليك لا تهتدي به ولو فهمته عقلاً. وأكثر الحقائق الأبدية لها صدى في مختلف النفوس، ولكن ثبوتها بالنسبة إليك يجب أن يقوم على تواؤمها مع تكوين نفسك أنت.

وإذا تم لك التوفيق بين تكوين نفسك وبين حقائق بعينها، فهذه الحقائق أبدية بالنسبة إليك؛ لأن الزمن لا يغير من تكوين نفسك.

ذلك أن تطور النفس الإنسانية لا يتم إلا على مدى أطول كثيرًا من الأزمان التاريخية. مثله في ذلك مثل التطور البيولوجي. وعمرك أقصر من أن يسمح للتطور بأن يغير من تكوين نفسك.

ولو أن الحقائق الأبدية كانت تتعلق بالعقل لأصابها التغير في الأزمنة التاريخية. ولو كانت تتعلق بالعلم لكان تطورها يدخل في

نطاق عمر الفرد. وقد يكون بناء نفسك آخر مراحل التطور في تاريخ النفس البشرية، ولكنه بالنسبة إلى حياتك القصيرة ثابت ثبوت لون عينيك. والتغير الذي تراه في نفسك حين يمتد بك العمر وتزداد خبرتك بالحياة ليس إلا تطوراً في التعبير عن هذا التكوين. وفي تصورك الذهني لأصل الحقائق النفسية التى هى ثابتة أبدًا بالنسبة إليك.

* * *

والحقائق السماوية حقائق عامة شامل؛ لأن تشابه النفوس يجعل تأثرها بهذه الحقائق متشابهًا أبدًا. وهذا يجعلها عالمية أبدية.

وهى حقائق عليا. قال بذلك الأولون حين آمنوا أنها نزلت من السماء، هى عليا لأنها حملت الناس على الاهتداء إلى الحق. فإن لم تطمئن إلى هذه الحجة فاعلم أن القوانين الكونية تتفاضل، وإذا كان هناك قانون لا يعمل إلا فيما عمل فيه قانون آخر فالأول أسمى من الثاني. والقوانين الخلقية لا تعمل في الحيوان مهما يكن رقيه بيولوجيّا. فهى أسمى من كل قانون بيولوجي. وهى بذلك أسمى القوانين الكونية. هذا هو التفسير العلمي للسمو الخلقي وقد تطمئن إليه نفسك أكثر من اطمئنانها إلى أنه سماوي.

وكل حقيقة تؤمن بها إيمانًا نفسيّا خالصًا يقوم على توافق بينها وبين تكوين نفسك هي بالنسبة إليك حقيقة أبدية، وسترى أن

أصدق تعبير عنها أن نقول إنها سماوية مهما يكن رأيك في واقعية هذا التعبير. هذا خير لك من جحودك لها وإنكارك إياها. لما في هذا الإنكار من خطر على السلم بينك وبين نفسك.

٢

يقول الطبيعيون إنهم يفرضون أن الضوء موجات ويحسبون على ذلك نتائج تجاربهم، فإذا الفرض صحيح، ثم يفرضون أنه جسيمات. ويحسبون نتائج تجاربهم فإذا هذا الفرض أيضًا صحيح.

وكذلك القول بأن الله أصل الهدى قول حق يؤدي إلى اهتداء النفوس. والقول بأن الله غاية الهدى قول حق يؤدي إلى اهتداء النفوس. كلا القولين حق لا مراء فيه ولك أن تؤمن بكليهما أو أن تختار أيهما أقرب إلى نفسك، ولعل هذا أن يكون تفسيرًا آخر لقولنا هو الأول وهو الآخر.

فإذا تدبرت المعتقدات الأساسية في الأديان فقد ترى أنك تستطيع أن تفهمها على أى الوجهين حسب ما تطمئن إليه نفسك.

يقول المسلم في صلاته: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)** ﴾، والمسلم يعبر في هذا الدعاء عن أنه يؤمن بأن الله ينعم على الناس فيهديهم صراطًا مستقيمًا، يكون لهم فيه صلاح

الدنيا والآخرة، وأن الذين لا يهتدون هم من غضب الله عليهم فحرمهم نعمة الهدى، وأن الضالين هم الذين حادوا عن الصراط المستقيم. وهذا الدعاء يدل دلالة واضحة على أن المسلم يؤمن أن الله قد يرضى عنه فيهديه. وأن الله قد يغضب عليه فلا يهديه.

* * *

وقد يجد ضعاف الإيمان صعوبة في تصور العلاقة بين الله وبينهم على هذا النحو، وقد يكون أصل هذه الصعوبة أن الإنسان يريد أن يفهم القدرة الإلهية بعقله، وقد يكون مصدرها ضعف الإنسان عن أن يعرف كيف يهدي الله الناس. ومهما يكن أصل هذا الشعور فهو على كل حال عقبة تعوق الإيمان، ومثل هذا القلق يضعف من إيمان المؤمن، وليس عليه بأس أن يسعى إلى فهم هداية الله فهمًا ليس فيه عليه صعوبة.

وليس في هذا الدعاء ما يمنع أن يكون أصل الاهتداء في نفس المؤمن. وأن يكون الله قطب الاهتداء. وأن يكون الصراط المستقيم هو الطريق التي تصل بين الله ونفس المؤمن في غير اعوجاج. وليس فيه ما يمنع من تحديد معنى غضب الله أنه نقص في طبيعة الإنسان يمنعه أن يهتدي بالقدرة الإلهية اهتداءً فعالاً، وليس فيه ما يمنع من تحديد معنى الضالين أنهم هم الذين في طبعهم القدرة على الاهتداء. ثم عملت فيهم قوى مضلة خرجت بهم عن الصراط المستقيم حين لم يستطيعوا لها ردّا.

وليس بين الفهمين لهذه الحقائق الأبدية تناقض. وكلاهما يؤدى إلى الهداية. ولك أن تختار منهما ما يكون فيه اطمئنان نفسك اطمئنانًا لا مراء فيه.

٣

جاء في القرآن الكريم: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾. ولك أن تفهم هذه الآية على أنها تاريخ واقعي، وأنه جاء على الناس وقت بعينه كانوا فيه سواء في جهلهم بأمور الغيب، ولا يكون اتفاق الناس في مثل هذا الأمر إلا على أقل قدر من العلم، كما تكون القافلة حين تسير. لا تكون متماسكة إلا أن تسير على سرعة أضعف أفرادها وأبطئهم. ثم اختار الله من بين الناس قومًا أوحى إليهم بأمره. وأرسلهم إلى قومهم يعلمونهم أمور الغيب، يبشرونهم بالخير إن اتبعوا الحق وينذرونهم بالعذاب إن حادوا عنه.

ويجد بعض من ضعف إيمانهم صعوبة في فهم النبوة على هذا النحو الذي تصوره الأولون وآمنوا به. هؤلاء يسألون لِمَ كان عهد النبوة مقصورًا على وقت دون وقت؟، ولِمَ انقطع خبر السماء حين انقطع؟، ولِمَ اختصت بهم أمم دون أخرى؟. واختلف الناس في فهمهم الوحي، هذه الشكوك ليست بذات بال. ولكنها تمنع أن يهتدي أهلها بالنبوة اهتداءً كاملاً خالصًا.

إذا كنت من هؤلاء فلك أن تفهم الآية على أن النفوس البشرية يتمثل في تاريخها تاريخ «الناس» تكون في أول عهدها غير قادرة على الاهتداء ثم تنمو فيها هذه القدرة، وقد يقصر بها عن الاهتداء ضعف في تكوينها. ثم يكون من الناس أفراد فيهم قوة بالغة على الاستهداء يتجهون إلى الله في عزم وثبات، ومن ناحية أخرى يؤثرون فيمن حولهم أثرًا قويًا يحمل هؤلاء على أن يتجهوا إليهم فيتجهوا بذلك نحو الله، وكانوا من قبل أضعف من أن يهتدوا بهدى بعيد عنهم غيبي عليهم.

وليس عجيبًا أن ينقطع خبر السماء بعد أن بيَّن لنا الأنبياء كل وسائل الهدى، ولم يبق على الناس إلا أن يختاروا منها ما يوافق طباعهم.

وليس بين هذين الفهمين للنبوة تناقض. كلاهما يعبر عن حقيقة أبدية واحدة.

٤

ومن تعاليم المسيحية ما قاله سيدنا عيسى حين وعظ الناس أن يتركوا أهلهم وأولادهم وعشيرتهم ويسيروا وراءه. وظاهر الموعظة حث الناس على نبذ الدنيا وعلى الانقطاع للعبادة، ولكنها فوق ذلك تدل على حقيقة أبدية. هي أن تطهير النفس يجب أن يفضله المؤمنون على حب الأقربين. وأنه إذا لم يكن بد

من المفاضلة فالتمسك بالطهر أولى بك من كل فضيلة غيره. وعبر المسيح عن ذلك في موضع آخر بقوله: ماذا يجديك أن تملك الدنيا إذا فقدت ضميرك؟.

والتعمق في بحث الحقائق الأبدية يدلنا على مواضع اتفاق بين الأديان يخفيها اختلاف التعبير، ويدلنا كذلك على مواضع اختلاف أعمق مما يبدو لأول وهلة، من ذلك الخلاف بين المسلمين والمسيحيين في أمر المسيح هل صلب حقّا أو شبه للناس أنهم قتلوه والخلاف واضح. ولكنه لو كان خلافًا على حدث تاريخي لهان الأمر، والناس يختلفون في أمر الأحداث دون أن يثير فيهم هذا الخلاف شقاقًا كبيرًا.

وحقيقة الخلاف أن المسيحيين يؤمنون بالتكفير والفداء. وأصل ذلك أن يستشهد بريء طاهر فيحمل عن الناس خطاياهم. هذا هو لب العقيدة المسيحية ومغزاها العميق حين يتحدثون عن الصلب، ولعل قولهم إن الاستشهاد يحمل عن البشرية خطاياهم يحتاج إلى تحديد. وأحسبهم يريدون بذلك أن كل بريء مهما يكن فضله فهو دون فضل المسيح. وأن كل ظلم يقع عليه هو دون ما وقع للمسيح. فيكون للمظلومين عزاء فيما حدث، وأن كل خطيئة تهون بجانب خطيئة الذين حكموا على المسيح بالكفر، وهو قد طلب المغفرة لأنهم لا يعلمون ما يعملون.

والمسلمون لا يروقهم الفداء ولايؤمنون بالتكفير عن الذنوب بما يقع على غير المذنب، وعندنا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا

نستطيع أن نتطهر بما لا نؤمن به، هذا هو المغزى العميق لما نشعر به من إنكار للصَّلب.

٥

ولعلك عجبت كيف عبد الناس في قديم الزمان أصنامًا ينحتوها بأيديهم، وكيف كان غيرهم يعبدون من الحيوان ما يشاءون. وقد يختارون أقذرها وأبشعها. ولعلك عجبت أن يعبد كبار المفكرين من الإغريق آلهة من نسج الخيال وهم ينسبون إليهم أعمالاً لا تليق برجل كريم فضلاً عن إله يعبد.

وسمعت من غير شك أن غاندي يعبد البقرة ويرى أن عبادتها ركن من أركان دينه. وأن ترى عبادة البقرة سخفًا وسفهًا. وأنت تعلم من غير شك أن غاندي لم يكن سخيفًا ولا سفيهًا.

أمور لا تستقيم أبدًا إلا أن يكون للعبادة في كل حالة من هذه الحالات معنى غير الذي نعنيه نحن حين نقول إننا نعبد الله.

وإذا اختلف رجال مخلصون في أمر واضح كهذا فأغلب الظن أنهم يتحدثون عن أشياء مختلفة جدّا، وإن دلت عليها عبارة واحدة. وكذلك ترى أن الناس حين يختلفون في أمر الحقائق الأبدية إنما يختلفون في التعبير عنها وفي تصورهم إياها وفي محتوى العبارات التي يرددونها.

والعبادة علاقة بين العابد والمعبود. وهي تختلف في طبيعتها وقوتها باختلاف العابد والمعبود، وتاريخها يدل على أنها تتطور

تطوراً واضحًا يرجع إلى رقي نفوس العابدين، وسمو تقديرهم لما يعبدون.

* * *

يعبد البدائيون أول ما يعبدون حجارة لا تدل على شيء بعينه. وهم لا يريدون منها غرضًا محدوداً، ولعل عبادتهم إياها لا تكون إلا تجسيمًا لخوفهم مما يجهلون، وأملهم في قوة عليا لا يعرفون كنهها، وعلاقتهم بمعبودهم ليست إلا تعبيراً عن الخوف والرجاء. والواقع أن هذه الأصنام ليس لها على عبدتها إلا أدنى مراتب الاحترام. وقد يكون من دوافع عبادة الأصنام حاجة الناس إلى شيء يجمعون عليه.

ثم يتقدم تفكير الناس فتدهشهم الظواهر الطبيعية يعجبون بدوامها وثباتها وقوتها. عند ذلك نراهم ينسبون إليها كل ما يقع لهم مما يجهلون سره. فالرعد عندهم غضب من قوى عليا لا يعرفون عنها شيئًا، والغيث رحمة منها، يعبدون الشمس والقمر والنجوم، يعبدون النار لما فيها من قدرة على الخير حين تضيء وعلى الإيذاء حين تحرق. ولكنهم يقفون من عبادتها عند هذا الحد لا يعدونه. وهم لا يضعون لها صفات بعينها يحترمونها من أجلها.

* * *

ثم يتأمل الناس الحياة فتبهرهم خصائصها. عند ذلك تكون عبادة الحيوان. وهي في أدنى مراتبها لا تزيد على عبادة الأصنام.

وموقف العابد منها موقف الخوف من المجهول والأمل فيما قد يكون لهذه المعبودات من قوة. على هذا النحو يعبد العامة الحيوان. أما الخاصة فعبادتهم لها إنما هي عبادة لصفات كريمة تتمثل في الحيوان المعبود، وخير الأمثلة على ذلك عبادة الخاصة من الهنود للبقرة. فهم لا يخشون غضبها، ولا يرجون منها نفعاً، وهم من غير شك لا يهتدون بها، وعبادتهم لها عبادة لصفة الوداعة في البقرة وبعدها عن كل ما يشعر الناس بالعنف أو الطغيان، وهى على هذا الوصف موضع احترام خاص يعبر عن احترامهم للوداعة والسلم، ولا ترتفع عبادتهم لها فوق ذلك الحد الواضح.

ثم كانت عبادة اليونان لآلهة يتخيلونهم ذوى حياة صاخبة مملوءة بأعجب الأعمال، وحياتهم إنسانية صريحة إلا أنها فيهم أقوى ما تكون وأجمل ما يتصورون. مثلوا جمال الطبيعة وقوة البحر وسيطرة السماء وجعلوا كل هؤلاء آلهة، وصوروها قصصاً وتماثيل وشعراً، ولم يعبدوا في آلهتهم إلا القوة والجمال والعقل والحيلة، ونسجوا حول ذلك شعراً جميلاً، وأقاموا من فنونهم بناء ميثولوجيّا متكاملاً. ولم تزد عبادتهم لهذه الآلهة على حد الإعجاب.

هذه هى المرتبة الثانية من المعبودات والعبادات، وهى التي تعبد فيها الصفات التي يمثلها المعبود، وهذه العبادة أول ما عرف من عبادة المعنويات.

ثم كانت الخطوة الكبرى التي خطتها الإنسانية حين اعتنق الناس الأديان المنزلة. وهي تسمو على كل ذلك سموّا عظيمًا، وفضلها على ما يعتقده الوثنيون جميعًا كبارهم وصغارهم، خاصتهم وعامتهم، فلاسفتهم وبسطاؤهم أنها تدعو إلى الإيمان بإله خالق، ولم يعرف غيرهم قبل ذلك عن الخلق شيئًا. وأهل الأديان المنزلة نزّهوا معبودهم عن كل ما يمكن أن يشبه مخلوقاته في شيء من صفاتها، ثم بلغوا غاية الرقي حين جعلوا معبودهم مصدر الهدى والخير.

* * *

والأديان المنزلة وحدها علمت الناس كيف يعبدون من يهديهم إلى الخير والصراط المستقيم، ولم يفطن إلى ذلك أحد من قبل، ولا يدعى أحد من عبدة الأصنام أو الحيوان، ولا يدعي أحد ممن يعبدون الصفات السامية التى تتمثل في البقرة، لا يدعي أحد من هؤلاء أنهم يهتدون بما يعبدون إلى الخير أو الصراط المستقيم.

وعبادة الله خطوة كبيرة في تطور معنى العبادة، وهو معنى لم يخطر لمن يعبدون غيره على بال، والتنزيه الذي يؤمن به أهل الأديان المنزلة رفع من معنى العبادة إلى أن أصبحت اهتداءً ولم تقف عند حد الخوف والرجاء والعجب أو الإعجاب كما كانت عند غيرهم.

المعبودات الدنيا توحى بالعبادات الدنيا. والدرجات العليا من المعبودات توحى بدرجات عليا من العبادات.

والذيـن يعبـدون الأصنـام والحيـوان ـ حين يعبدونهـا لذاتهـا ـ لا يعرفـون من العبـادة إلا مراتبـها الدنيـا، يحدوهـم خوف يبلغ حد الرعب، ورجـاء يفوق كل مـا هو معقـول، وفي هذه العبـادة الدنيا صفات تجعلها من قبيل الإلهام، والإلـهام يفيد منه الحيوان من غير شك، ولكنه طريق ضيقة لا يستطيع الحيوان أن يحيد عنهـا، وفي قوانين الإلهـام قسوة وصـرامة وسلطان على الحيوان لا مفـر منه. والعبادة في مراتبها الدنيا فيها هذه الصفات جميعًا.

* * *

ومن الحـشرات مـن يحـملـهـا الإلـهـام على أن تجعل لـصـغـارهـا مأوى، له باب ضيـق تخـرج منه وتعـود إليه عـن طريقـه. فإذا زال هذا البـاب اضطربت الحشرة لا تهتدي إلى صغـارهـا، على وضـوح الطريـق إليهـا، ما دامـت لا تـرى البـاب الـذي تعرفـه. والـذي لا تهتدي إلا به. وكـذلك العبادة الدنيا ضيقـة محدودة ولهـا على أهلها مثل هذا السلطان.

ولا نزاع أن الأديان المنزلة هي التى ارتفـعت بالعبـادة إلى أرقى درجـاتهـا. جعلت المعـبـود قـوة منزهة عـالية هي الله، وجـعلت العبادة سبيلاً للهداية والسمو.

ونحـن حين نقـول إن الله أرقى المعـبـودات وأن عـبـادته أرقى العبـادات لا نقول ذلـك اصطلاحًا أو جزافًا، ولكنهـا حقـيقة ثابتة أبدية يدل على ذلك مـا سبق أن بيّناه من أن كل قـانون لا يعـمل إلا فيمـا عمل فيه قانون سـابق يجعل القـانون الأول أرقى من الثـاني.

فعبدة الأصنام لا يعرفون عبادة الحيوان، ولكن عبدة الحيوان يفهمون عبادة الأصنام، ويسمون فوقها. كذلك عبدة الحيوان لا يفهمون عبادة المعنويات، أما هؤلاء فيفهمون عبادة الحيوان ويسمون فوقها، وعبدة الله يفهمون كل أنواع العبادات الدنيا ويسمون فوقها. وأهل العبادات الدنيا لا يعرفون عبادة الله. هذا هو المعنى العلمي لقولنا إن قانونًا ما أرقى من قانون آخر.

٦

وأود لو أستطيع أن أقنع الناس أن الفخر بالإلحاد، وإنكار الغيب، والكفر بالهدى الغيبي. كل ذلك قد انقضى زمنه، والإلحاد نقص في فهم البشرية وطبيعتها، وهو نقص يجب أن يعمل الناس على تلافيه، وبذلك وحده تتحقق لهم النفس المطمئنة، وبذلك وحده يدخلون واديهم المقدس، وهو غاية الحياة السوية.

وليكن ذلك على أي نحو يشاءون. ولعلهم واجدون فيما نحن بصدده بابًا يدخلون منه ذلك الوادي المقدس. حيث يجدون تواؤمًا حقًا بين ما يهتدون به وما ركب فيهم من طباع.

٧

المثل الأعلى عند المسلمين	النفس المطمئنة
والمثل الأعلى عند المسيحيين	النفس المحبة

والمثل الأعلى عند الموسويين   النفس العادلة

ولعل المثل الأعلى عند البوذيين   النفس المتخلصة

هذه المثل العليا تختلف اختلافًا بيّنا. إلا أنها كلها تؤدي إلى الصحة النفسية إذا وافق المثل الأعلى ما ركب في نفس المؤمن به من طباع.

ولا تنفع تعاليم النفس المتخلصة في تحقيق صحة نفس من مثلهم الأعلى العدل أو الحب. هذه الأمور لا توائم النفس الساعية إلى التخلص، والنفس التي جبلت على إكبار العدل لا تستقيم صحتها على خير وجه إذا أرغمت على الأخذ بتعاليم النفس المحبة؛ لأن هذه تضع الحب فوق العدل.

والنفس المطمئنة جماع ذلك كله. تطمئن إلى العدل إذا هذبت حواشيه وخففت من قسوته عاطفة الحب. والجمع بين العدل والحب يؤدي إلى الرحمة وهي عند المسلمين أرقى من العدل وأقوى من الحب وأقرب إلى طباع أكثر الناس، وهي عندنا أعظم صفات الله.

والأديان المنزلة هبطت على الناس على هذا الترتيب حين أريد للإنسان أن يتصل بالله. فتعلم من الدين أول ما تعلم أن الله يثيب المحسن ويعذب المسيئ، وهو حق إلهي لا شك فيه، وكان من الطبيعي أن يكون ذلك على يد موسى، وهو الذي شهد الظلم في أقوى مظاهره.

* * *

وكان هذا الإيمان بالعدل الإلهي أول مراحل معرفة الإنسان بالله. حتى إذا استقر ذلك في نفوس الناس أنزل الله عليهم عاطفة الحب فتبينوا أن الله وإن كان يجزي الناس بأعمالهم إلا أنه يثيب كذلك على حب الناس إياه وحبهم بعضهم بعضًا، ثم أنزل الله على الناس القرآن يجمع بين العدل والحب في صفة واحدة هي الرحمة، ولم يكن للإنسان أن يدرك في أول عهده بالدين كل هذه المعاني قبل أن يستقر كل معنى منها في طبائع البشرية.

فاختلاف المثل العليا السماوية لا يرجع إلى اختلاف في هداية الله للناس. ولكنه اختلاف في قبول النفس الإنسانية للهداية وقدرتها على استيعاب كل معاني الخير.

٨

الإنسان نفس وعقل وذكاء.

والنفس عضو في التكوين الإنساني مثلها مثل العين، لها خواصها ووظائفها وقوانين عملها ولها صحتها وأداؤها.

وهي العضو الذي من شأنه أن يتأثر بالقوى التي تعمل فينا عن غير طريق الحواس، وهي تنظم أثر هذه القوى فينا وتحمينا من الخوف الذي نشعر به إزاء الغيب.

وقد تكون ممن ينكرون الغيب ويرونه فرضًا لا حاجة بنا إليه، وهذا خطأ يقع فيه كثير من المفكرين وهم يحسبونه تحررًا من قيود

غير طبيعية، ويرونه رقيًا في العلم والتفكير، والواقع أنك في إنكارك القوى الغيبية بين أمرين: الغرور الذي تحسب به أنك بلغت غاية العلم أو أن الإنسان غاية الكون، وكل كائن حي يرى أنه أرقى الكائنات؛ لأنه لا يدرك الصفات الخاصة بالكائنات التي تعلوه لقصوره عن إدراك ما ليس من طبيعته أن يدركه، كما أن الحجر أو النبات لا تستطيع أن تدرك الأمانة أو الشجاعة أو الإخلاص؛ لأنه ليس من طبيعتها أن تتأثر بأي منها، والأمر الآخر أن تكون جاهلاً إلى حد ترى فيه أن ما لا تعلمه لا وجود له، وهو غاية الجهل.

* * *

والغيب لا تدركه المعرفة لأنه إذا عرف لم يعد غيبًا. ومهما تتسع معرفة الإنسان فهي محدودة بقوة عقله. ولا يدرك القوى الغيبية إلا النفس من حيث هي العضو الذي يتأثر بها.

والعقل هو العضو الذي من شأنه أن يتأثر بالقوى التي تأتينا عن طريق الحواس، ينظم ما نرى وما نسمع ويحدد أثر ذلك فينا، وعمله قائم في أصله وغايته على المحسوسات، وموضوعه التفكير في كل ما تتناوله المعرفة، والمعرفة لا تأتيه إلا عن طريق الحواس، وقد ظن أهل الفلسفة الكلاسيكية وهم يتناولون أوائل الأشياء وأواخرها أنهم يفكرون تفكيراً عقليًا بحتًا، ولكن بحوثهم كانت تقوم على قواعد مشتقة أصلاً من الأشياء وسبيلها إلى العقل لا يكون إلا عن طريق الحواس.

والذكاء هو العضو الذي يتناول الأشياء التى نعرفها وعلاقات بعضها ببعض من غير بحث في أثرها في هدايتنا .

٩

والأصل في النفس أن تهيئ لنا الاطمئنان إلى الغيب ، وهي تحمينا من الرعب الذي يعترينا إزاء ما نجهل . ذلك أن المجهول له أثر مرهق في أكثر الناس ، ويزداد خطر هذا الأثر كلما زاد جهلنا بما يحيط بنا من قوى لها في حياتنا أثر لا نعرفه يقينًا .

قد يقال إن هذا شعور بدائي وإن الرجل إذا بلغ قدراً معقولاً من رقي الفكر واتساع العلم لا يشعر بهذا الخوف ، فلا حاجة به إلى النفس وحمايتها له من الغيب ، وهذا وهم لأن الرجل الذي لا يرعبه الغيب في عصرنا هذا إنما يأتيه الاطمئنان ؛ لأنه يعيش بين جماعة اطمأنت نفوسهم من أثر الإيمان في أسلافهم على أزمان طويلة متعاقبة . والاطمئنان إلى الغيب الذي يكون في الجماعة المؤمنة هو الذي يؤدي إلى اطمئنان الفرد وإن لم يكن في قرارة نفسه مؤمنًا . والاجتماع بذاته وسيلة من وسائل اتقاء أثر هذا الخوف .

* * *

والخوف من الغيب أكثر في البدائيين منه في المتقدمين لكثرة ما يجهلون ، وقليل من الناس من لا يزال يظن أنه هو المقصود

بالصواعق والزلازل والنكبات لما يرتكب من ذنوب. ولكن المتقدمين أنفسهم لا يخلصون من هذا الخوف أبدًا وإن ظنوا أنهم ينكرون القوى الغيبية إنكارًا تامًّا. وقد لا يكون هذا الإنكار إلا نقصًا في تكوينهم النفسي.

والتقدم العام في أمور الإنسان يؤدي إلى تقدم في صحة النفس وصحة العقل وصحة الذكاء، ولكنها ليست أمورًا متلازمة، فقد يكون من كبار النفوس من لا يمتازون بقوة العقل أو حدة الذكاء، وعلى ذلك لا يكون عجيبًا أن نرى من البسطاء والضعفاء من تكون نفوسهم كبيرة عالية، ولا يطعن في سمو النفس أن يكون هذا السمو غير مفهوم عقلاً.

وكذلك قد يكون بين كبار العقول مَن نفوسهم ضعيفة جدًّا لا يتأثرون إلا بما يدلهم عليه عقلهم، وهم بذلك لا يتأثرون إلا بما يأتيهم عن طريق الحواس. وبعض كبار الفلاسفة والمفكرين من هذا الطراز، ولا يطعن في الأمور النفسية أن يكون أكبر الناس عقلاً وعلمًا محرومين من هذا العضو الذي لا يتأثر إلا بالغيب.

وقد يجمع الإنسان بين عظم النفس وقوة العقل وحدة الذكاء، ولكن هذا أمر نادر جدًّا، واجتماعها في نفر قليل لا يدل على أنها أمور متلازمة أو متشابهة، ولا يدل على أن أحدها يتعلق بالأمرين الآخرين.

١٠

وظيفة النفس أن تحمينا من الخوف الذي يعترينا إزاء الغيب، وقد يقال إن بعض الناس لا يشعرون بهذا الخوف. ولكن ذلك ليس دليلاً على قوة فيهم. حالهم في ذلك يشبه حال الذين لا يبصرون، فهم حين يسلط عليهم ضوء قوي لا يشعرون بشيء إزاءه، على حين أن المبصر يزعجه مثل هذا الضوء القوي وقد يؤذي عينيه أشد الإيذاء، وكذلك الصوت المزعج يخيف الرجل الذي سلم سمعه ولا يؤثر فيمن يكون بأذنيه وقر.

والذين يفخرون بقوتهم إزاء الغيب وتجاهلهم إياه مخطئون؛ لأنهم يدلون بذلك على ضعف فيهم ونقص في تكوينهم.

وصحة النفوس تحتاج إلى أمور عدة وأمراضها تعتريها من نواح متعددة، وقد أسرف بعض علماء النفس عند بحثهم في صحة النفس وأدوائها. وتحدثوا كثيراً عن الكبت والكفاح بين الوعي وما تحت الوعي إلى غير ذلك من الأمور التي أصبحت معروفة شائعة بين الناس. وأكثرها تصورات وتخيلات يمثلون بها ما يحدث في النفس من اضطراب وقلق، ولا يمكن أن تكون صوراً لما يقع فعلاً في قلوب الناس.

والواقع أن الباحثين في أمور النفس يجب أن يتناولوها على أنها عضو له صفات خاصة، وأنها لا تخرج في عملها وقوانينها

وأدوائها على ما يتعرض له غيرها من أعضاء الجسم إلا من حيث اختلاف موضوع عملها، وهو الغيبيات عن موضوع عمل العقل والذكاء، وهو المحسوسات.

ويزيد أمور النفس صعوبة تحليل أننا لا نعرف لها معايير تقاس بها حسابيّا. على حين أن المحسوسات تقاس قوتها وأثرها في الحواس قياسًا دقيقًا. وهذه صفة تزيد اطمئناننا إلى صواب ما نعلم. والطهر شيء لا تفاضل في قدره. والإنسان في وقت بعينه لا يكون إلا متطهراً أو غير متطهر. ولا يمكن أن تكون حاله من الطهر على قدر. وليس هذا غريبًا على القوانين الطبيعية. فالقلب حين تنقبض عضلته يكون انقباضها كاملاً ولا يكون جزئيّا. هذه الصفة في أمور النفس تجعل البحث فيها عسيراً على من نشئوا على أن الرياضيات أصل كل علم ثابت. وكأن ما لا يقاس حسابيّا لا يكون من عمل العلم.

وأنت حين تتطهر تكون في الوادي المقدس، وحين لا تتطهر تكون خارجه. ولا يمكن أن تكون في هذا الأمر بين بين.

١١

الإنسان نفس وعقل وذكاء، والبحث في أدوائه يجب أن يتناول ما يعتري هذه الأمور الثلاثة من عيوب تقعد بها عن أداء عملها أداءً كاملاً.

النفس تتأثر أكثر ما تتأثر بأدواء الحرمان. ولا يصيبها الملل إلا قليلاً.

والعقل يصاب أكثر ما يصاب بالملل، وأثر الحرمان فيه قليل.

أما الذكاء فأكبر عيوبه النقص ولا يتأثر بالحرمان أو الملل.

ولعلك تكون من الذين يحرصون على أن تظل نفوسهم سعيدة مطمئنة لا يعتريها القلق أو الشك، ولعلك تكون قد تبينت أن في طبيعة نفسك استقطابًا للخير جبلت عليه بفطرتها. ولعلك تبينت بعض أسباب الهدى والضلال، ولا يبقى عليك بعد ذلك إلا أن تعمل على ألا تصاب نفسك بأدواء تقعد بها عن بلوغ الغايات التي هي مهيأة لها بطبعها.

وقد تصاب النفس بالضمور ويكون ذلك من قلة مرانتها على التطهر وعمل الخير ومن إغفالها التأمل في هذه الأمور، كما تضمر أعين الحيوان إذا قضي عليه أن يعيش أكثر حياته في الظلام، هذا عيب نراه كثيراً في العصر الحاضر على ما يكون في المصابين به من نية حسنة واستعداد للخير. ولكنهم ينصرفون عن المعنويات، وليس من العسير أن نتلافى هذا النقص.

* * *

على أن أخطر ما تصاب به النفوس يأتيها من الحرمان.

والحرمان هنا له مدلول خاص، يعرفه الأطباء معرفة يقينية حين يصيب الأجسام فيحدث فيها أدواء بعينها تسمى أدواء الحرمان،

ولا يصاب الإنسان بهذه الأدواء إذا حرم القوت أو فقد عضواً من أعضائه أو إحدى حواسه. ولا يعصمه من أدواء الحرمان أن يأكل كثيرًا أو أن يكون كل عضو فيه سليمًا، وإنما تعتريه أدواء الحرمان حين يحرم أمورًا بذاتها ـ سنسميها مواد الحرمان ـ وذلك كأنه يحرم عنصرًا لا تستقيم الحياة بدونه كاليود مثلاً، أو أن يحرم مادة في غذائه كالفيتامينات، أو أن يحرم مادة يصنعها هو كالهرمونات. عند ذلك يصاب الجسم بداء من أدواء الحرمان، ومن صفات هذه الأمراض أنها تؤثر في الجسم عامة، وأننا لا نستطيع أن نستعيض عنها بغيرها. وليس في الجسم جهاز ينذره بنقصها كما تنذر الشهية الجائع، وليس لديه وسيلة يستطيع بها مقاومة هذه الأمراض. فإنه من المستحيل أن تقوم في الجسم مناعة ضد ما ينقصه.

وكذلك النفوس لها مقوماتها التي لا تستقيم حياتها إلا بها، فإن حرمتها أصابتها الأمراض النفسية، وأمراض الحرمان النفسي شبيهة غاية الشبه بأدواء الحرمان الجسمي. وقد يبلغ الإنسان الغاية من الغنى والمجد ثم تنقصه أمور فتصبح حياته تعسة قلقة، والمحروم من هذه الأمور لا يشعر بما ينقصه. وليس فيه جهاز يحمله على استكمالها. وهي تؤثر في حياته كلها ولو كان كل جزء منها سليمًا. وكثيرًا ما يكون المستضعفون والفقراء والمظلمون أسعد حالاً من الأقوياء والأغنياء والظالمين حين يكون هؤلاء محرومين من الأمور الضرورية لصحة النفوس.

* * *

وقد نصف مواد الحرمان في الجسم على أنها «بيوتونية»، أي أنها تقوي الصفات البيولوجية في الحيوان. وعملها عام شامل.

كذلك قد نصف مواد الحرمان النفسي على أنها «سيكوتونية»، أي أنها تزيد في قوة النفس. وأثرها عام شامل كذلك والفرق بين المحرومين وغير المحرومين منها أن الأولين لا ترتفع نفوسهم إلى مستوى الآخرين. كأن نفوسهم ذوات دم بارد إذا قورنت بالنفوس الكاملة.

١٢

ومواد الحرمان النفسي هى الإيمان والحب وتذوق الجمال والقدرة على التأثر بالسرور.

والنفس التي تحرم الإيمان نفس مشوهة تشويهًا بالغًا لا تستقيم معه الإنسانية على وجهها الصحيح. وليس من المهم تحديد ما يؤمن به الإنسان، ولا يعنينا أن نبحث أحق هو أم باطل، وإنما يعنينا أن يكون إيمان الإنسان متعلقًا بأمر غيبي يعلو على ما يدركه عقله وحواسه، وأن يكون هذا الإيمان خالصًا قويًا ثابتًا لا تزعزعه عواصف الحياة.

ومما يدلنا على أن الإيمان مادة حرمانية أن الإنسان إذا حرم نعمته واضطربت نفسه ثم أصاب منه القدر الذي تستقيم به حياته كان ذلك غاية أثر الإيمان فيه، والإسراف في الإيمان لا يزيد في صحة النفس، وليس كبار المؤمنين أصح نفسًا ممن بلغوا من الإيمان

القدر الضروري للحياة، وهي صفة في أدواء الحرمان لا تكون في غيرها. ألسنا نرى البلهاء الذين ينقصهم إفراز الغدة الدرقية يبرءون من البله حين يتداوون بقليل من ذلك الإفراز. فإذا أعطوا فوق هذا القدر فإن ذلك لا يزيد في ذكائهم إلى ما يفوق طبيعة عقولهم.

* * *

وأكثر أمراض الحرمان النفسي ذيوعًا هو من غير شك نقص عاطفة الحب عن الحد الذي لا بد منه لصحة النفس، وهو مرض أكثر انتشاراً مما يظن الناس، وكثير من الذين يحسبون أنهم يحبون ذويهم حبّا صادقًا لا يفطنون إلى أن حب الأقربين أقل من أن تصح به النفوس حتى حين يكون صادقًا؛ لأنه يكاد يكون حبّا بيولوجيّا يشاركنا فيه كثير من الحيوان. أما الحب الذي يرضى النفس فهو الحب الشامل الذي نشعر به نحو أكثر الناس، وقد حاول المسيحيون أن يجعلوا حبهم للمسيح حبّا شاملاً يحمل المؤمن على أن يحب من يحبهم المسيح وهم الناس جميعًا، وليست هذه بالوسيلة الوحيدة لبلوغ الحب الشامل بل هناك وسائل أخرى كثيرة، يختار منها كل إنسان ما يوافق طبيعته، وكلها تؤدي إلى الغاية المرجوة ما دام الإنسان يستطيع أن يتقي بها مرض الحرمان من الحب الشامل، ذلك الحرمان الذي يضر بالنفس ضرراً بالغًا.

والتقديس أعلى مراتب الحب الذي يطهرك، والذين يقدسون أشياء بعينها ـ مهما تكن هذه الأشياء جديرة أو غير جديرة

بالتقديس ـ لا يصابون بأدواء الحرمان، وأكبر مراتب التقديس أن يكون بين مقدساتك شهيد ترى أنه مات من أجلك. هذا يعين بعض الطباع على الإخلاص التام لمن تقدسه، فيكون حبها إياه أقرب وأيسر وأعظم. وتطهرها به أقوى وأكمل. وهذا من غير شك أصل ما يشعر به الشيعة في إعظامهم أمر سيدنا الحسين.

١٣

أكمل الحب حبك الله إذا كان من أثره فيك أن تحب من يحبهم الله وهم الناس جميعًا، وليس لك أن تختار من الناس من هم جديرون بحبك، وليس لك أن تختص بهذا الحب من تعتقد أن الله يحبهم. فأمر ذلك إلى الله وحده، وعليك إذا أحببت الله حقّا أن يقع حبك على الناس أجمعين.

ومن الناس من حرموا القدرة على كبح نفوسهم، والكبح هو الأساس الفسيولوجي للأخلاق، والحرمان منه يشبه الحرمان من الإيمان، وليست الأخلاق إلا الصورة النفسية لقانون الكبح الذي هو قانون عام في أكثر الكائنات الحية، فهم الأخلاق على هذا النحو يوضح لنا جوهرها الأخلاق وأثرها فينا بأكثر مما نستطيع أن نتبينه بغير هذا التصور، وقد يعيش الإنسان دون أن يكون على خلق قوي، ولكن حاله عند ذلك تكون كحال القلب الذي قطع عنه عصب الكبح. هذا القلب يؤدي عمله من غير شك ولكنه

يصاب من جراء ذلك بالإرهاق ونقص في القدرة على مقاومة الصدمات وعجز عن التمتع بالراحة التي يهيئها له عصب الكبح. ثم هو فوق ذلك يصبح أقل قدرة على «التكيف» من القلب الطبيعي.

والنفوس المتطهرة أكثر تعرضًا للحرمان من سواها، ذلك أنه خيِّل إلى كثير من المتطهرين أن الاستمتاع بما تصبو إليه النفس يسوقها إلى مزالق الخطيئة، وأن كبح جماح النفس أكبر عامل على اهتدائها، والإسراف في الحرمان أخطر على النفس من التعرض لبعض أخطار الانزلاق.

* * *

والنفوس كالأجسام تستطيع أن تقاوم الأدواء التي تأتيها من عامل خارجي. ولكنها لا تستطيع أن تتغلب بنفسها على أدواء الحرمان. وذلك أن أدواء الحرمان تسبب ضعفًا وتخاذلاً حتى عن السعي إلى سد النقص. وليس فينا جهاز نعرف به ما ينقصنا من الأمور الحرمانية كما نعرف ما ينقصنا عند الجوع أو العطش.

وقد لا يكون النشاط العنيف والكفاح القوي والرغبة البالغة في التفوق دليلاً على صحة النفس، فقد يحدث أن يكون ذلك كله محاولة يائسة للتغلب على نقص فيها لا يعرفه صاحبها، وقد يظن أن تفوقه يؤكد كفايته وفضله، وما هو إلا دليل على أنه حرم شيئًا لا غنى له عنه.

ومن الناس من تنقصهم الثقة بكفايتهم فيتضخم فيهم الغرور، ومنهم من ينقصهم السمو النفسي الصحيح فيتضخم فيهم التعالي

والكبرياء، ومنهم من لا يصيب نجاحًا يرضيه فيعظم نشاطه وسعيه إلى التفوق على منافسيه، والفرق بين هذا النشاط الأجوف والنشاط الحق أن النشاط الذي ينشأ عن الحرمان لا ينتج خيراً، ولا يسد النقص الذي يكون بصاحبه ولا يؤدي إلى الرضا النفسي. وهذا بالضبط ما يحدث للغدة الدرقية تتضخم حين ينقصها عنصر اليود تحاول بهذا التضخم أن تسد النقص، ولا يفيدها هذا شيئًا وتظل عاجزة عن أداء وظيفتها الطبيعية.

* * *

والنفس المطمئنة في غير حاجة إلى الغرور، والتعالي الأجوف أكثر ما تراه فيمن ينقصه تقديره لنفسه فتراه يحاول أن يؤكد تقدير الناس له، والقناعة حين لا تكون ضعفًا ولا تخاذلاً ولا خوفًا من الحياة تدل على نفس كاملة الصحة، والشراهة ليست دليلاً على الهمة والنشاط والإقدام، بل هي دليل على أن صاحبها يحتاج إلى ما يعوضه عن نقص فيه، وإن لم يعرف كنهه ومداه. فهو يستكثر مما يملك، ظنّا منه أنه في سعيه هذا يبلغ ما تبلغه نفوس من يراهم سعداء من حوله، وهذا وهم. فقد يستكثر من كل شيء ثم ينقصه شيء بسيط غاية البساطة لو فطن إليه لاستقام له أمره بأيسر جهد.

وكذلك الرجل الذي لا يعبأ بالأخلاق قد يعيش عيشة طبيعية إلى حد ما، ولكنه لا يستطيع أن يصمد للنوائب إذا حلت به ولو

كانت يسيرة، ولا أن يتقى خطر الإرهاق، ولا أن يستمتع بالهدوء حين يكون في حاجة إلى الطمأنينة.

* * *

أما الملل فقليلاً ما يعتري النفوس. وقلَّ أن تجد رجلاً مؤمنًا يصيبه الملل من كتبه المقدسة، وقليل منهم من يمل العبادات، وهم يكررون صيغًا واحدة في دعائهم الله وفي صلاتهم له ولا يصيبهم من ذلك ملل. بل إن أثر الدعاء والصلاة في نفس المؤمن يظل قويّا أبدًا رغم تكراره يومًا بعد يوم، وهي ظاهرة لا نراها في غير الأمور النفسية العميقة.

الملل ظاهرة تكاد تكون عامة في الكائنات الحية وهو أوضح ما يكون في الإنسان. وجوهر هذه الظاهرة أن القوة التي تعمل في الكائن الحي تحدث فيه أثرًا بعينه. حتى إذا استمر عمل القوة نفسها على هذا الكائن ضعف أثرها فيه وإن ظلت على قوتها الأولى. فالصوت الذي يوقظ النائم في أول الأمر يفقد هذه القدرة حين يتكرر كثيراً.

وأكثر رجال الاجتماع والسياسة يغفلون تقدير الملل في الناس فيفسد بذلك حسابهم نتائج أعمالهم. فطن إلى ذلك لا مارتين حين قال إبان ثورة من ثورات بلاده: إن فرنسا أصابها الملل.

١٤

وأوضح ما يكون أثر الملل يكون فيما يتعلق بالحواس. والأعضاء التي نتلقى عن طريقها الإحساسات المختلفة هي التى تصاب بالملل كثيراً. ألا ترى أن الأشياء الجميلة تجلب لنا السرور حين نراها أو نسمعها أو نلمسها أو نشمها أو نذوقها أول مرة. حتى إذا طال عهدنا بها ضعف أثرها فينا. وقد يبلغ بنا الأمر ألا نشعر إزاءها بسرور ما، لا لنقص في جمالها وقوته ولا لعيب فينا أو نقص في قبولنا للسرور.

وإنما هو الملل الذي لا مفر منه عندما يطول الأمد الذي تعمل فيه القوة الواحدة في الشيء الواحد، وخاصة إذا كان التأثر على نمط واحد. وفي هذا إيضاح لما نرى من إعراض الناس عن التطهر واستخفافهم بالدعوة إليه والترغيب فيه. تراهم لا يأبهون للتحذير من الخطيئة والخطأ حين تظل أساليب الوعظ والدعوة إلى الخير على نمط واحد، وقد يكفي قليل من التغيير في بعض نواحي التأثير ليذهب أثر الملل. والتخلص من الملل أيسر مما يظن أكثر الناس.

أما الذكاء فميدان عمله تحقيق العلاقات القائمة بين الأشياء التي تحيط بنا. والعيب فيه لا يكون إلا عن طريق النقص في استيعابه العلاقات التي يبحث فيها. والقوانين التي يكشف عنها الذكاء تختلف باختلاف عدد الأشياء التي نتناولها وباختلاف

مقدار علمنا بها. فإذا قل عدد الأشياء التي نعرفها كانت العلاقات بينها مما يحتمل معه أن تكون عرضية أو موقوتة أو مجزوءة تصح في دائرة صغيرة ولا تصدق في نطاق أوسع. وكذلك إذا قل علمنا بالأشياء كانت العلاقات التي نتصورها بينها مما يحتمل معه أن تكون سطحية. وقد يتبين عند التعمق في بحثها أن التشابه أو الاختلاف بينها لم يكن جوهريّا.

* * *

والعلم أكبر مظاهر الذكاء. ولكن الناس يعجبون لتغير العلم يومًا عن يوم. ويزعجهم أن يكون الحق عند أسلافنا باطلاً عندنا، ولهم العذر حين يفقدون ثقتهم في شيء لا يقر له قرار. والواقع أن العلم ليس إثبات وقائع ولا تقرير حقائق ولكنه ربط الوقائع والحقائق بعضها ببعض على نظام متسق مطرد يصدق على أوسع مدى. والاتساق والاطراد والشمول صفات لا يبلغها العلم إلا عند تمام معرفتنا بأكبر عدد من الظواهر المتشابهة. وعلم الإنسان صحيح دائمًا في حدود معرفته للأشياء فإذا كثرت الأشياء التي يعرفها وزاد علمه بها تغيرت القوانين التي تربط بعضها ببعض دون أن يكون فهمنا القديم لهذه العلاقات باطلاً حينذاك.

١٥

إذا كنت ترى من نفسك أنك آمنت وأحببت وعرفت فقد

أوتيت الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .
والوادي المقدس هو جماع الإيمان والحب والمعرفة، وهو موضع الحكمة ومكان الطمأنينة وسر السعادة. وإذا بلغته فلا يكاد يعنيك بعد ذلك ما يقع حولك وقد يكون شرّاً كثيراً، وقد يصيبك منه أذى عظيم ولكنك في الوادي المقدس مؤمن محب عارف. لذلك لا يمسك من هذا الجحيم الذي يعيش فيه الناس شيء تضطرب له نفسك المطمئنة.

وسيفت في عضدك كثيراً أن الناس لا يعلمون من فضائلك إلا القليل، وأنهم لا يعرفون الجهد الذي تبذله حين تقاوم الإغراء العنيف وأنهم لا يرون فرقًا بينك وبين الذين لم يتعرضوا لهذا الإغراء أبدًا. ولعلك تود لو كان لهذا الإحجام عن الشر جزاء يعرف به قدره.

ألا فاعلم أن جزاء الفضائل السلبية والمستترة هو بقاؤك في واديك المقدس، ولتكن على يقين أن خضوعك للإغراء خروج من الوادي المقدس، وأن بقاءك فيه جزاء أي جزاء على جهدك العنيف في مقاومة الإغراء والشر.

ولعلك ترى في حديثي هذا إليك ما يعينك على أن تتمتع بالسلم بينك وبين نفسك، وهو أعز ما يجب أن تحرص عليه.

* * *

قد تقول إن حديث النفس حديث جميل ولكنه بعيد هادئ. وأمور الحياة عاجلة ملحة وأنك أحوج إلى معرفة الصواب والخطأ منك إلى معرفة الخير والشر.

وقد ترى أن الحديث عن الغيب حديث ممتع. ولكنه يقوم على فرض ليس عليه دليل. وقد تكون من الذين لا يتصورون أن أمرًا ما يمكن أن يغير ما بين الأسباب والمسببات من علاقة. وعلى ذلك لا يكون للغيب أن يؤثر في أحداث حياتك شيئًا.

وقد تنكر ذلك كله فتقول إن هذه أساطير الأولين ابتدعوها يملئون بها فراغًا في نفوسهم أصله الجهل.

وإنه لا حاجة بك إلى شيء منها بعد أن بلغ العلم ما بلغ.

وقد تكون ممن لا يجزمون في هذه الأمور برأي. فأنت لا تجد عليها بعقلك برهانًا. ولا تشعر بنقص فيك يحملك على السعي إلى تمامه بها.

وقد تقدر أن الإيمان بالغيب والتطهر لن يزيدا في فضائلك كثيرًا. إذ أنت ترى أنك أصفى قلبًا وأعظم رحمة بالضعفاء وأكثر إنسانية من كثير من المؤمنين الذين قست قلوبهم فظلموا الناس، وهم يدعون أنهم يفعلون ذلك إخلاصًا منهم لإيمانهم.

وإنك لتعرف أن العصور التي بلغ فيها الإيمان ذروته لم تحقق للناس سلامًا يعيشون في ظله. وأن أكثر الأذى الذي يقع منك وعليك أصله أنه ليس بين الناس سلم عام. وأنك قد تعرض لك شرور ولا تجد في نفسك عزمًا يقيك بأسها فلا يسعك حينذاك إلا أن تأثم مع الآثمين.

وأكثر الناس في عصرنا هذا لا يقدرون الفضائل الشخصية حق قدرها. ولا يعتقدون أن الخطيئة أصل الشرور التي يرزح تحتها

عالم اليوم. ولا يتصورون أنهم يستطيعون العودة إلى الإيمان القديم إيمان العجائز والبسطاء.

وكل همهم مقصور على أمرين: أن يعرفوا الصواب في ما يعتزمون عمله في حياتهم. وأن يجدوا وسيلة لتحقيق سلام عام يعود نفعه على الناس جميعًا.

وعندهم أن كل بحث لا يحقق ذلك لا يعنيهم في قليل أو كثير.

* * *

وإني لأعلم أن النفس لا تتعلق إلا بأمر الغيب والإيمان به. وأن هدايتها هداية عامة لا تتعلق بالأحداث ذاتها. وأنه ليس من شأنها أن تقدر الأسباب والمسببات وما يكون بينها من ترابط.

ولكني دعوتك إلى البحث في أمرها؛ لأن حياتك لا تستقر إلا أن يكون لها أصل ثابت لا يغير الزمن منه شيئًا. وليس في حياة كل منا شيء أثبت من النفس.

وليس لحياتك معنى إلا أن تكون لها غايات لا تعصف بها الخطوب والنكبات. وقد يضيع الغنى ويذهب السلطان وينهار المجد وتزول السعادة. عند ذلك لا يبقى لك إلا نفسك فإن كنت عنها راضيًا عوّضك هذا الرضا عن كل ما تفقده.

ولو أن الخطر على حياتنا كان مقصورًا على أنها تكون عبثًا إذا فقدت هذا الأصل وهذه الغاية لهان الأمر. ولكن أثر هذا النقص

أن يجعل الحياة قلقة مضطربة يؤذيها كل ما يعترضها من صعاب وإن كانت تافهة .

أما قولك إنك لا تشعر بنقص في نفسك عندما يعوزك الإيمان فهذا أمر معروف . وقد بيّنا من قبل أن الإيمان من أمراض الحرمان . وأمراض الحرمان لا يشعر من يصاب بها بما ينقصه ولا يعرف من أين يأتيه الضعف . وأمراض الحرمان لا تصيب عضواً بعينه وليس فينا جهاز يحملنا على السعي إلى استكمال النقص ، كما يشعر الإنسان بالجوع والعطش فيسعى إلى ما يشبعه ويرويه . وشعورك أنك لا ينقصك شيء لا يدل على أن نفسك سليمة من هذا النوع من الأمراض .

وأما قولك إن الناس لا يرغبون اليوم في شيء رغبتهم في تحقيق السلم العام . وإن هذا السلم لم يحققه إيمان الأفراد ولا تطهرهم . فهو قول حق من غير شك . ولنذكر أنه إذا كان الإيمان قد أخفق في تحقيق السلم فكذلك أخفق العلم والعقل . ولا أحسب أن مما يقربنا إلى السلم أن نتجاهل أمور النفس وهداية الإيمان .

ومن عمل النفس المطمئنة المؤمنة أن تهيئ لحياتك جوّاً جميلاً هادئًا تنمو فيه حسناتك على خير وجه ، كما تنمو الزهور في الجو الدافيء المعتدل نمواً يزيد بهجتها وجمالها .

الحرمان*

١

لا أعلم أن أحدًا عنى عناية خاصة بدراسة الحرمان دراسة علمية منظمة على ما قد يكون لهذا البحث من أثر فى كشف الكثير من معضلات علم النفس وعلوم الاجتماع وفى تفهم القوانين التى يسير عليها تاريخ الجماعات. وقد يغفر للباحثين فى فلسفة التاريخ وعلم العمران ألا يفطنوا لهذه الدراسة ولكن العجب أن يغفلها علماء النفس وهم أقرب من أولئك إلى الدراسات الطبية التى يرجع إليها أكبر الفضل فى تصور معنى الحرمان وتتبع آثاره.

الواقع أنه ليس من السهل أن يقع التفكير الطبيعى على معنى الحرمان كعامل من العوامل القوية فى تكييف حياة الأفراد والجماعات. ذلك أنه إذا أراد الإنسان أن يبحث عن أسباب

---

* تحدثت عن الحرمان في أكثر من موضع في هذا الكتاب. ولم أقصد بالحرمان معناه المألوف، وإنما أردت له مدلولاً محدداً تحديداً علمياً دقيقاً فوجب إيضاحه.

حادث بعينه فإن المنطق الطبيعى يدعوه إلى البحث عن ذلك فى الحوادث التى سبقته، ليتبين أيها أدى إليه. أى أن البحث يكون عادة عن الأسباب الإيجابية. وليس من الطبيعى أن يبحث الإنسان عن علة حادث ما باستقصاء ما لم يحدث، أى عن الأسباب السلبية وهذا بالضبط نوع التفكير الذى لابد منه إذا أردنا دراسة الحرمان. وهو تفكير غير عادى ثم هو عسير، وأصعب ما فيه أن الإنسان لا يكاد يهتدى إلى وسيلة لتنظيمه ويبدو لأول وهلة أنه من المستحيل البحث فيما لم يحدث عن علة ما حدث.

* * *

هذا التفكير الخاص يرجع الفضل فى الكشف عنه إلى الأطباء. وهم لم يدركوه إلا أخيراً. ذلك أنهم رأوا أمراضاً خاصة لا ترجع إلى طارئ طرأ على الجسم ولا إلى حادث حدث له، وإنما ترجع إلى حرمانه أشياء لا تستقيم الحياة الطبيعية بدونها. ووجدوا أن هناك موادّ بعينها لها مميزات خاصة إذا حرمها الجسم اضطربت غرائزه كلها أشد الاضطراب. وخير الأمثلة على ذلك نقص بعض العناصر كاليود وبعض المواد التى سميت بعد ذلك بالفيتامينات وأخرى دعيت الهرمونات، والذى يهمنا الآن هو أن نتبين أن هناك موادّ خاصة إذا حرمها الإنسان أصيب بأمراض اتفق الأطباء على تسميتها أمراض الحرمان. هذه المواد سنسميها عوامل الحرمان وهو ما لم يتصوره أحد من العلماء الأقدمين. وأحسب ذلك يرجع أكثره لا إلى نقص فى العلم فحسب بل إلى أن هذا

النوع من التفكير ، الذى يراد به أن يربط الإنسان المسببات الإيجابية بأسباب سلبية ، ليس من الوضوح بحيث يعد تفكيراً طبيعيّاً . وقد ظلت دراسته مقصورة على حرمان الجسم ولم يخطر ببال العلماء أن يطبقوه على غير العلوم الطبية البحتة . وعندى أن هذا الكشف الطبى هو مفتاح نوع جديد من التفكير قد يكون من الخير أن نطبقه على علوم النفس وعلوم الاجتماع .

٢

وعلماء النفس ، وخاصة علماء التحليل النفسى ، على ما بهم من غرور دفعهم إلى دعاوى عريضة فى القدرة على كشف علل الأمراض النفسية ، لم يفطنوا فى تعليل الأمراض النفسية لقوة الحرمان . وشيخهم الكبير فرويد أراد أن يرجع العلل النفسية إلى الاضطراب الذى تحدثه فى النفس حوادث قديمة ـ أكثرها فى عهد الطفولة ـ تترك فى عقلية الطفل أثراً لا يستطيع الزمان أن يمحوه . وقد تكون الحياة الظاهرة للرجل خالية من كل أثر لهذه الحوادث . ولكن حياته الباطنة تظل خاضعة لها . والحوادث التى تحدث لنا فى سن الطفولة تترك فى شخصيتنا أثراً هو أشد من الحوادث الكبيرة الظاهرة التى تعرض لنا ونحن فى سن الرجولة . وقد رأى فرويد فى الحوادث الجنسية ورأى غيره فى حوادث أخرى كل ما يريدونه من تعليل أسباب الاضطرابات النفسية ، ولكنهم لم

يتعرضوا للحرمان ولم يقدروه قدره من حيث هو سبب من أسباب الاضطرابات النفسية .

* * *

أما الباحثون فى علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ فلم يفطنوا إلى أن الجماعات قد تصاب بأمراض الحرمان ، وأنه قد يكون فى ذلك تفسير لبعض الأحداث التاريخية الكبرى التى تؤدى إلى قوة الأمم ونهضتها أو ضعفها وانحلالها ، بل قد تكون فيه الحلقة المفقودة فى التحليل العقلى الكامل لتطورات حياة الجماعات .

وقد سمعنا كثيراً عن تفسير هذه التطورات ، فمن المؤرخين من يرجعها إلى مكافحة الطبيعة والبحث عن المأوى والزاد ، وبعضهم إلى ضغط العوامل الاقتصادية ، وبعضهم يرى أن القضاء على الرق مثلاً يرجع إلى اختراع سروج الخيل التى أغنت الناس عن استعمال الرجال للحمل والجر . وسمعنا أن أكبر عامل فى تكييف الحياة الاجتماعية الحديثة إنما هو نمو الآلات الصناعية . ولكن أحداً لم يعن بدراسة العوامل السلبية فى تفسير الأمراض الاجتماعية دراسة منظمة .

٣

ومن الأسباب القوية فى أن البحث فى الحرمان ظل بعيداً عن تفكير العلماء ما رسخ فى الأذهان من أن الصحة حال طبيعية ،

وأن الإنسان يولد صحيحًا بطبيعته حتى يعرض له ما يخرج به من الصحة إلى المرض. ومن علماء الأخلاق من حسبوا النفس البشرية طيبة بالفطرة حتى يعرض لها الشر بالإغراء والتضليل. ومنهم من حسب الإنسان أقرب إلى الشر ما لم يقوِّمه الدين أو القانون أو القوة. وسواء أكانت الجماعات على حالها الطبيعية طيبة حتى يعتريها المرض، أم شريرة حتى يهديها القوَّامون عليها طريق الصواب، فلا شك أن العلماء ما زالوا يعتقدون أن صحة الأفراد والجماعات أمر طبيعى، وأن المرض لا يعتريها إلا إذا أصابها شر من أحداث الحياة. والحقيقة أن الصحة حال قلقة غير مستقرة، وهى نتيجة لتفاعل عوامل عدة لا بد من اجتماعها قبل أن نصبح أصحاء، وبذلك يكون من أسباب المرض ألا تجتمع هذه العوامل. وقد يكون النقص موجودًا قبل أن يولد الإنسان.

ومن ذلك يتبين أن الأبحاث العديدة والجدل القوى الذى دار حول طبيعة الإنسان، وهل هو خيِّر بطبعه تجب حمايته من الشر الخارج عنه، أو شرير بطبعه يجب كبح جماحه حتى يعود إلى الحق، كل هذا الجدل عبث لا غناء فيه.

ولنرجع الآن إلى الحرمان عند الأطباء، لا للبحث فى تفصيل أمراض الحرمان وعوامله، فذلك مجاله الطب البحت، ولكن لنتبين معنى الحرمان عندهم وهو معنى خاص.

فالحرمان لغة النقص، ولكنه عند الأطباء اصطلاح علمى له قوانين خاصة هى أوضح ما تكون فى الجسم، وسندرسها فيه حتى

إذا ما تبينت لنا هذه القوانين أمكن تطبيقها على الظواهر النفسية والاجتماعية.

٤

وسنشرح فيما يلى هذا المعنى المحدود للحرمان وقوانينه:

أولاً: لا يعد النقص العام حرمانًا بل يجب أن يكون النقص فى مادة من المواد التى تسمى مواد الحرمان. فنقص الغذاء عامة لا يعد حرمانًا، وقد يكون الغذاء قليلاً ولكنه إذا استكمل عناصره لم ينشأ عنه مرض من أمراض الحرمان.

ثانيًا: مواد الحرمان يجب أن تكون نادرة، فالمواد الكثيرة الانتشار التى يستطيع الإنسان أن يجدها فى كل مكان لا تعد من مواد الحرمان، ولا تعد منها أية مادة يستطيع الجسم أن يستبدل غيرها بها. ويجب ألا يكون الجسم قادرًا على تكوينها من بين المواد الأخرى التى يسهل حصوله عليها.

ثالثًا: أثر الحرمان يجب أن يكون عامًّا، فلو أن الإنسان فقد سمعه أو رجله أو أصيب بمرض فى عضو من أعضائه يفقده عمله فلا يعد ذلك حرمانًا. إنما الحرمان يكون من مادة لها أثرها فى النشاط الجسمى كله وإن كان كل عضو سليمًا.

رابعًا: تبين من دراسة أمراض الحرمان أنها كلها تؤدى إلى الضعف وفقد النشاط، ولا نعلم أن الحرمان من إحدى هذه المواد

دفع المريض إلى نشاط خاص. هذه الخاصية أوضح ما يفرق بين النقص العام والحرمان. فالجوع يدفع الناس إلى السعى والتماس الغذاء بقوة وعنف، أما الحرمان فإنه يقعد بصاحبه عن كل نشاط يؤدى إلى الخلاص من دائه.

خامسًا: ليس فى الجسم وسيلة يعرف بها الإنسان أنه حرم إحدى هذه المواد وليس فى طبيعتنا ما يدفعنا إلى التماسها فى مظانها، وليس كذلك الجوع، فالشهية وسيلة من أدق الوسائل التى تهدى الإنسان إلى ما ينقصه من الغذاء. والجوع يحدث تقلصًا فى المعدة يفهمه الجسم فيسعى إلى استكمال النقص. ولكن إذا حرم الإنسان عنصراً هامّا كاليود فلا يمكن للإلهام أن يهدى المحروم إلى ما حرمه، ولعل هذا العجز التام عن الإحساس بالحرمان هو أخطر مظاهره، وهو ما يجعل معرفته صعبة وعلاجه عسيراً. وهذه الظاهرة تجعل أمراض الحرمان أخطر الأمراض كلها؛ لأنه ليست لدينا وسائل طبيعية للعلم بها أو مقاومتها. لذلك قد يكون الحرمان أقسى على الإنسان وأبعد أثرًا من أمراض أخرى أشد خطراً إذا كانت هذه واضحة الأعراض.

سادسًا: من أخص صفات مواد الحرمان أن قوتها لا تتبين إلا عند نقصها، فإذا أعطيت للسليم فإن أثرها فيه يكون ضئيلاً. وإذا تم للإنسان منها ما يكفيه ـ وهو عادة قليل ـ لم يعد المزيد منها ذا فائدة للجسم، وهذا أمر خاص بهذه المواد، فالذى ينقصه إفراز الغدة الدرقية يصاب بالضعف الجسمى والعقلى، حتى إذا أعطى

كميات قليلة منه عاد إلى طبيعته، ثم لا يفيده شيئًا أن يزيد منه، أى أن أثر هذا الإفراز لا يكون إلا عندما يحرم الإنسان منه فإن لم يكن محرومًا فلا أثر له فيه.

٥

على ضوء هذه القواعد قد نستطيع أن نبحث عن أثر الحرمان فى حياة الإنسان وسعادته.

والناس يعلمون من قديم الزمان أن السعادة لا تتحقق لهم ببلوغ الغايات التى يسعون إليها عادة. فمن الناس من أوتى كل ما تصبو إليه نفسه، وهو مع ذلك أبعد الناس عن السعادة، ومنهم من لم يؤت إلا القليل ثم هو راض هانئ، وهو ما يدعوه الناس بالقناعة. والواقع أن القناعة لا تتم إلا أن يكون الغذاء النفسى على قلته مستكملاً كل ما لا بد منه لصحة النفس. ومن الناس من أوتوا أكبر حظ من مظاهر السعادة دون أن يوفقوا إلى الاطمئنان النفسى، ويرجع ذلك إلى أن غذاءهم النفسى على كثرته ينقصه عنصر هام من العناصر التى لا تتم السعادة إلا بها.

* * *

الناس يسعون عادة إلى إحراز المال والقوة والنجاح والتفوق على غيرهم، وهذه الأغراض ليست من العوامل الحرمانية ولا تنطبق عليها القواعد التى ذكرناها، بل هى من الأمور الشائعة التى

يسعى الناس كلهم إليها، وقد تنقص فى حياة الناس نقصًا شديدًا دون أن يؤثر ذلك فى نفوسهم تأثيرًا خاصّا، ثم إن هذا النقص يدفع الناس إلى النشاط والسعى، وهو ما لا يتفق وصفة العوامل الحرمانية. وللناس «شهية» خاصة ترغبهم فى هذه الأغراض عند نقصها، وليس ذلك من صفات الحرمان. ثم إن تحققها يزيد فى نهم الناس إليها، وهو أيضًا فارق كبير بينها وبين العوامل الحرمانية.

* * *

ومع ذلك يكاد يكون من المؤكد أن السعى إلى المال والقوة والنجاح يؤدى ضمنًا إلى الحصول على ما يحتاج إليه الإنسان من المقومات الضرورية للسعادة. فإذا تم ذلك كان لهذه الأغراض الشائعة فضل علينا؛ لأن السعي إلى بلوغهايحقق لنا قدرًا كافيًا من هذه العوامل الحرمانية، وإذا لم يحقق لنا ذلك لسبب ما فالمال والقوة والنجاح وحدها لا تحقق شيئًا من صحة النفس، بل يكون الإنسان منها كما كان الملاحون قديمًا عندما يأخذون غذاءهم فى السفر الطويل، فقد يكون كثيرًا جدّا دون أن يحقق لهم الصحة على كثرته لنقص الفاكهة فيه، وكان يكون أصح لو حملوا عُشر هذه الكميات من الغذاء وحملوا معها عصير الليمون. وكذلك الذين يكنزون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والذين يتمتعون بأكبر نصيب من القوة والجاه والنجاح قد يكون خيرًا لهم لو حملوا عُشر هذا وعنوا باستكمال عناصر أخرى من الحياة قد

تكون بسيطة كعصير الليمون رخيصة مثله، ولكنها مما لا تقوم الحياة إلا به.

٦

ولنبحث الآن عن هذه العوامل الحرمانية في الحياة الداخلية للإنسان، تلك العوامل التي إذا حرمها أصابه الأذى، والتي يكفيه منها الشيء القليل، ومع ذلك إذا أسرف فيها لم يفد من الإسراف شيئًا. لنبحث عن هذه العوامل التي إذا حرمناها لم نشعر بالنقص شعوراً يدفعنا إلى استكماله، والتي يسبب لنا الحرمان منها ضعفًا عامّا ونقصًا فى النشاط واضطرابًا يمس شخصيتنا كلها، دون أن نتبين أثرها فى ناحية خاصة من نواحى الحياة.

أول هذه العوامل الحرمانية التي لا بد منها لصحة الحياة النفسية هو الحب بأوسع معانيه، ولعل الحديث عن الحب أقدم الأحاديث. وما زال الناس يتناولونه بالبحث والتقدير، يتغنون به ويتناولون نواحيه كلها دون أن نتبين عقلاً موقعه من حياة الإنسان. وقد رفعناه من الناحية العاطفية فوق كل اعتبار آخر، ولكنا لم ننجح بعد في تفسير هذا المكان الرفيع تفسيراً علميّا. ويخيل إليَّ أن خير سبيل إلى فهم الحب فهمًا حقّا لا يكون إلا على أنه عامل حرماني بالمعنى الذي سبق أن حددناه.

* * *

فالرجل الذى يحرم هذه العاطفة رجل مريض ولا يغنيه عنها أن يؤتى ما في الأرض جميعًا، إذ لا سبيل إلى الاستعاضة عنها بشيء آخر. ومرض الحرمان من الحب مرض شائع أكثر مما يظن الناس. وهو يسبغ على شخصية المحروم منه نوعًا من التشويه يشعر به من حوله، وقد لا يحس به هو من تلقاء نفسه، فليس في الإنسان ما يدفعه إلى الشعور بهذا الحرمان والسعي إلى استكماله. غير أن الطبيعة البشرية جعلت في الحياة العادية للإنسان ضمانًا للحصول على القدر الكافي من عاطفة الحب.



ومن صفات الحب التي تجعله عاملاً حرمانيًا أن قدرًا منه يكفي للصحة النفسية. وقديمًا علم الناس أن خير الحب ما كان مخلصًا لهدف واحد، وأن أشرفه أقواه لا أكثره، وأن المسرفين فيه وكبار المحبين ليسوا أصح نفسًا من الذين لم يصيبوا منه إلا القدر الكافي.

ثم إن قوة الحب لا تقاس بأثرها فيمن يتمتعون به، وإنما تظهر واضحة حين نتدبر أمر الذين حرموه. وقد تبين لنا أن الإنسان لا يشعر بالحرمان شعورًا يدفعه إلى استكمال ما ينقصه، فليس في التركيب العقلي للإنسان «شهية» خاصة للحب. ومع ذلك استطاعت الطبيعة البشرية أن تربط بين الحب وبين العاطفة الجنسية، وهي أقوى الرغبات إطلاقًا. وفى ذلك ضمان أي ضمان أن يحصل الإنسان على نصيبه من الحب الحق. ومن هنا

جاءت الأهمية الكبرى للعاطفة الجنسية، لا لأنها غاية في ذاتها كما حسب علماء التحليل النفسي، ولكن لأنها وسيلة للحصول على نصيبنا من الحب العاطفي الراقي. وقد حسب الناس أن هؤلاء العلماء انحطوا بالنفس البشرية انحطاطًا شنيعًا حين جعلوا للجنس كل هذه الأهمية. والواقع أن الطبيعة الإنسانية ليست من الانحطاط بحيث تصبح كل مظاهر الحياة البشرية خاضعة للعاطفة الجنسية، ولكن هذه العاطفة لها قوة خاصة ولنا إليها شهية قوية. وقد علقت بها عاطفة الحب حتى يتحقق لنا الحصول على القدر الكافي منه الضروري لحياتنا الإنسانية.

٧

ومن أكبر الخطأ أن نحسب الحب الجنسي عندنا شبيهًا به عند الحيوان، فهو من حيث الضرورة البيولوجية يطابق ما عند الحيوان مطابقة تامة، ولكنه فى الإنسان وسيلة لبلوغ شيء هام جدًّا خاص بأرقى مظاهر الإنسانية وهو الحب.

على أن العاطفة الجنسية ـ مع ما فيها من قوة ـ لا تحمل من عاطفة الحب ما يكفي النفس البشرية إلا عند القوم البدائيين. فهي في ذلك كاللبن في الصحة الجسمية يحوي كل ما يحتاج إليه الإنسان، ولكنه لا يكفيه إذا تجاوز عهد الطفولة الأولى، وكذلك العاطفة الجنسية، هي غذاء نفسي كامل في العهود البدائية

للإنسان، أو عند الأفراد الذين ظلوا قريبين في نموهم النفسي من البدائيين، ولكنها وحدها لا تحوى من الحب ما يكفي الرجل الذي تقدمت به الإنسانية وارتقى فوق البدائيين وأشباههم، بل لا بد لاستكمال القدر الضروري من عنصر الحب أن يلجأ الإنسان إلى غير العاطفة الجنسية.

* * *

وقد حسب علماء التحليل النفسي أن الغاية هى الحب الجنسي، وأن الذين يسمون فوقه إنما يستعيضون بذلك عما ينقصهم من إرضاء للعاطفة الجنسية. وهذا وهم، فالواقع أن الحب الجنسي وحده لا يكفي النفس الإنسانية التي اكتمل نموها، وأن ما يسمونه «الارتفاع» لا يكون لنقص أصاب العاطفة الجنسية، وإنما هو استكمال لها حين لا تكفي وحدها في تهيئة القدر الكافي من الحب العاطفي الراقي، فالجنس ليس غاية الغايات عند الإنسان.

٨

الحب الراقي الذي لا بد منه لحياة الإنسان حياة سليمة والذي لا يعد الحب الجنسي إلا وسيلة للحصول على القدر الأقل منه، هذا الحب له مظاهر كثيرة أشهرها حب أحد الجنسين للجنس الآخر، ولكنه يجب أن يتخطى حدود الجنس فلا يبقى محصوراً

فيه، إذ لو ظل في دائرته لوقع الحرمان الذي نريد أن نتجنبه. ولو أن الرجل الحديث ظل في حبه للمرأة عند حد الجنس لأصيب في مجموع حياته بالحرمان؛ لأن هذا الحب لا يكفيه وإن كان كافيًا لمن هم أقل منه نموّا في الصفات الإنسانية الخاصة. والذين يظنون أن الإكثار من الحب الجنسي يسد هذا النقص العاطفي مخطئون، فهم يظلون مصابين بالحرمان ما لم يجدوا فى المرأة شيئًا غير الحب الجنسى.

* * *

والذين يستطيعون أن يبلغوا من عاطفة الحب مبلغًا يكفيهم لصحة نفوسهم دون حاجة إلى الجنس الآخر هم المتصوفون والفلاسفة والفنانون. ولكن هذا النوع من الحب عسير لا يستطيعه إلا القليلون وهو على كل حال ليس تحويلاً للعاطفة الجنسية كما قيل وليس سموّا بها إلى مستوى أرقى، وإنما هو استغناء عنها، وحياة هؤلاء تدل على أنه من الممكن أن نستكمل تكويننا الإنساني وأن نبلغ غاية الصحة النفسية عن طريق حب آخر غير الحب الجنسي.

* * *

والعامل الحرماني الثاني للصحة النفسية عند الإنسان هو الشعور الفني بأوسع معانيه، والحرمان منه مهما يكن مظهره يحدث في الإنسان أمراض الحرمان النفسية. والمحرومون منه معذبون، والرجل الذي لا يوفق في حياته إلى عمل شيء جميل

ـ من أى نوع يكون هذا الجمال ـ لا يمكن أن يكون سعيداً. وليس من السهل أن نحدد لكل فرد طريقًا خاصًا يتبعها لإرضاء هذا الذوق الفني. فالناس يختلفون في ذلك اختلافًا كبيراً، فمنهم من تعجبه الموسيقى أو التصوير أو الطبيعة أو الزهور. وقد يكون منهم من يتعلق ذوقه الفني بأمور تافهة أو بأشياء لا يعدها الرجل العادي جميلة، عند ذلك يكون إرغام الناس على شيء جميل لا يتذوقونه، أو الضغط عليهم لتجنب شيء يحبونه، سببًا فى ظهور أعراض الحرمان، وهنا موضع الخطر.

والتربية الحقة يجب أن تكون سمحة واسعة وأن تهيئ للرجل فرصة اختيار ما يوافق مزاجه وألا ترغمه قسراً على الإعجاب بما لا يعجبه وألا تضطره إلى تجنب ما فيه إرضاء نفسه، فقد يكون بعض الشر أصلح للنفس إن كان فيه إرضاء للذوق الفني. ويطول بنا البحث إذا أردنا استقصاء هذا الوجه من العامل الحرماني الثاني وهو الذوق الفني.

* * *

الإيمان من أكبر العوامل الحرمانية وأشدها خطراً، وفاقد الإيمان يصاب بأخطر داء من أدواء الحرمان. وعندى أن فقد الإيمان يصح أن يعد تشويهًا خلقيًا يخرج بالإنسان عن الإنسانية. فالنفس غير المؤمنة لا تعد كاملة الإنسانية، وصاحبها يجب أن يعد من نوع المخلوقات الشاذة التي لا تستقيم لها حياة سوية بل قد يكون فقد الإيمان أكبر أسباب الجنون. ومهما يختلف الناس فى موضوع

الإيمان فإن كل إنسان طبيعى لا بد له أن يؤمن بشيء، يستوي في هذا البدائيون الذين يؤمنون بأسخف الخرافات وأحدث العلماء الذين يؤمنون بالقوانين الطبيعية.

٩

ولنبحث الآن في أمراض الحرمان عند الجماعات:

تاريخ الأمم مملوء بالحوادث التي تحتاج إلى تفسير، وما زال علماء التاريخ يحاولون رد الحوادث التاريخية إلى قواعد بعينها لا تعدوها، وقوانين لا تشذ عنها، وقد تعددت هذه القوانين التى حسبها الناس تفسيراً كافيًا للتاريخ، وكتبت في ذلك كتب كثيرة شيقة ممتعة، ولكن أحداً لم يتعرض للحرمان على أنه أحد هذه القوانين، وأن له شأنًا أي شأن في تاريخ كثير من الأمم. والقارئ يقدر أننا لا نريد أن ننكر أثر الحوادث الإيجابية التي تحدث للأمم، فذلك شيء لا سبيل إلى التقليل من أهميته. ولكننا نريد أن نقول: إن بعض أمراض الجماعات يرجع إلى الحرمان كما يرجع إلى النكبات القومية الواضحة.

* * *

ومن أخص مظاهر أمراض الحرمان أن الباحث يدرك وجودها تقديراً قبل أن يهتدي إلى ماهية العامل الحرماني، ولعل من أظهر الأمثلة على أمراض الحرمان التي تصاب بها الأمم الدولة

العثمانية، وقد أسموها فى أواخر القرن الماضي الرجل المريض، دون أن يقدر الناس ما في هذا الوصف من حقيقة علمية لم تكن ليفطن لها أحد في ذلك العصر. فهي الدولة التي لم تستطع أن تفيد من عبر الأيام، ولم تتحرك يومًا لتتخلص من الحال السيئة التي وصلت إليها، بل أصيبت بضعف عام، شمل جميع نواحي الحياة، وغيرها استطاع تحت ضغط الحوادث والنكبات أن يشحذ الهمة ويقوم بدور إصلاح تحيا به الجماعة بعد ذلك حياة طيبة. هذا الضعف الشامل وعدم القدرة على النهضة من الكبوات، يرجع إلى خلو الدولة من عامل من أهم عوامل الحرمان في الأمم وهو حرية الفكر.

١٠

الظلم نوعان: ظلم بالعسف وظلم بالحرمان. والظلم الذي أصله العنف والقسوة قد يكون من بواعث انتقاض الجماعات وثورتهم وتخلصهم من عوامل الفناء التي تحيط بالبلاد المظلومة، ولكن الظلم بالحرمان يترك الجماعة كالمشلولة، لا حول لها ولا قوة، لا يحفزها شيء إلى الخروج مما هي فيه. فمن أمثلة الظلم بالعسف ـ وهو لا يقضي على الأمم ـ النظام الذي كان قائمًا في فرنسا قبل الثورة الفرنسية. ومن أمثلة الظلم بالحرمان الدولة العثمانية، فقد عانت أمراض الحرمان حتى ماتت.

* * *

حرية الفكر هي العامل الحرماني الأول في حياة الأمة. فيه كل الصفات التي شرحناها آنفًا، فهو عامل يكفي القليل منه لصحة الجماعات، وليس من الضروري أن تكون حرية الفكر عند كل فرد فيها، بل يكفي أن يكون منها القدر الكافي عند عدد من الأفراد. والحرية الفكرية هي الأمر الذي إذا حرمه الناس شل نشاطهم مهما يكن الإنتاج المادي أو الفني أو القوة التي يبلغونها. وهي لا يمكن أن تكون عند كل فرد من الجماعات التي يصح أن نقول عنها إنها متمتعة بها، وإنما يكفي الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار يتمتعون بحرية كاملة.

* * *

وحرية الفكر أيضًا من الأمور التي لا تستطيع أية أمة أن تستعيض عنها بغيرها من الأمور، فالقوة والغنى والفتوحات لا تمنع الدولة من الانحطاط، إذا لم يكن فيها القدر الكافي من حرية الفكر، بل إنه يشاهد في التاريخ القديم أن زوال بعض الدول إنما تم بعد فتوحات ضخمة، فإن ذلك دفع القائمين بالأمر فيها إلى الاستبداد وعند ذلك يبدأ الضعف المميت.

* * *

هذه إلمامة قصيرة بالمعنى الخاص للحرمان عند الأطباء، وبما يمكن أن يكون لهذا المعنى من فائدة في شرح بعض الأمراض

النفسية . ولا يتسع المجال هنا للبحث المستفيض في الموضوع بأسره، وإنى لأرجو أن تكون هذه الدراسة التمهيدية سببًا فى حمل الباحثين في التاريخ والتربية وعلم النفس على استقصاء عوامل الحرمان وأثرها في حياة الأفراد والجماعات .

الضبابُ

١

يود الناس لو يعرفون طريق الصواب فيما يعملون ولن يعرفوه حتى يتبينوا يقينًا أثر ما يعملونه اليوم في حياتهم غدًا أو بعد غد.

وأنَّى لهم ذلك وبينهم وبينه حجاب الزمن.

وكيف يخترقون حجابًا لا يعرفون كنهه ولا يستطيعون حساب قوانينه.

أيعرفون المستقبل بذكائهم؟ والذكاء ميدانه العلم وموضوعه العلاقات بين الأشياء مستقلة عن الإنسان. ونحن نعرف أن العلم إذا تناول الإنسان فإنما يتناوله من حيث هو شيء من الأشياء فهو يقيس سرعة الضوء ويعرف خواص الذرة ويدرس قوانين الوراثة. ولكنه لا يقيس أثر هذا كله فى حياتك. وليس له أن يدلك على ما يصلح لك فى مستقبلك القريب بله البعيد؛ لأن في ذلك أموراً مجهولة لا يعرف كيف يكشف عنها ولا يعرف كيف يحسبها حسابًا صحيحًا.

وعلى ذلك لا يكون لك إلا أن تهتدي بعقلك وحده في تقدير ما هو خطأ وما هو صواب فيما تقدم عليه. والعقل في حديثنا هذا له معنى محدود: هو القوة التي تتناول العلاقات بيننا وبين الأشياء وتحدد أثرها فينا. نفرق في ذلك بينه وبين النفس والذكاء. والإنسان وإن يكن شيئًا متكاملاً تتفاعل قواه بعضها مع بعض إلا أن التفريق بينها يزيد فهمنا إياها وضوحًا.

* * *

والعقل محدداً مدلوله على هذا النحو يتلقى الإحساسات من الحواس المختلفة. ثم يجمع أشتاتها وينسق بينها، يقابل المختلف منها ويقارن المتشابه، فيتكون له من ذلك نظام خاص به هو جماع العوامل التي يتكيف بها عقل كل فرد. ويخيل إلى كل منا أن نظام عقله منطقي لا غبار عليه. فهو لا يرى فيه ضعفًا ولا خللاً ولا يستطيع أن يدرك ما في تفكيره من عوج. ولو أدرك خطأ تقديره لعدل عما اعتزم عمله. وكل ما يعمله الإنسان معقول بالنسبة إليه من حيث إنه يصدر عن نظامه الخاص.

والناس تصدر أعمالهم - أو يحسبون أنها تصدر - عن حسن تقديرهم للمستقبل وهم يقدرونه قياسًا على الماضي كما يتصورونه. ثقة منهم أن سنن الكون واحدة. وأن علمهم بالماضي علم حق. وأنهم يعرفون أسباب الأحداث الماضية يقينًا. ثم يستخلصون من ذلك قواعد هي في رأيهم صادقة حتمًا، يستطيعون بها أن يتبينوا ما سيكون عليه مستقبلهم.

ولكن هل للناس أن يثقوا بالعقل هذه الثقة البالغة؟ أليس من واجبهم أن يعرفوا حدوده ومواطن قوته وضعفه، وأن يتبينوا مصادر أخطائه فيتجنبوها؟.

٢

ولبيان ذلك يحسن أن ندرس القوة المبصرة. فهي أقوى روافد العقل وأبعدها مدى وأصدقها تمييزاً. وليس من الخطأ أن نعد حدودها ممثلة لحدود العقل نفسه.

ونحن نعلم أن العين لا تميز الأشياء بعضها عن بعض إلا إذا وقعت صورتها على اثنين من عصى الشبكية أو مخروطاتها. فإذا كانت المرئيات من الدقة أو البعد بحيث لا تقع صورتها إلا على واحد من هذه الأعضاء الدقيقة استحال على العين أن تفرق بينها. وليس عمل التلسكوب أو الميكروسكوب إلا أن تجعل صور الأشياء البعيدة والدقيقة من الحجم بحيث تقع على اثنين من هذه الأعضاء.

هذا هو حد القوة المبصرة من حيث تركيبها وطبيعتها. ويحدها كذلك أن يحيط بالمرئيات ضباب يحول بينها وبين معرفة حقيقة ما تبصر مهما تكن حدة نظرها.

كذلك يحد من قدرة العقل على معرفة الأشياء أن تكون من البعد أو الدقة بحيث لا يستطيع أن يتبين حقيقتها. أو أن يكون في

الأمور التي يتناولها غموض يمنعه أن يتبين دقائقها وهو في هذا أسوأ حالاً من العين؛ لأن العين تدرك أن بينها وبين معرفة المرئيات ضبابًا ولكن العقل لا يعرف ما يحول بينه وبين الصواب. وهو يظن أنه يعرفه معرفة واضحة.

هذه بعض مصادر الخطأ الذي يعرض للعقل حين نحتكم إليه. ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نحتكم إلى غيره في معرفة المستقبل. ولا نستطيع أن نقدر هذه الأخطاء قبل أن نقع فيها.

* * *

ليس الخطأ أن نحتكم إلى العقل. ولكن الخطأ كل الخطأ أن نسرف في الثقة به فنتعدى حدود طاقته ونُحمله ما لا قبل له به.

وكثيرًا ما يقع أحدُّ الناس ذكاءً وأصوبهم حكمًا فى أخطاء واضحة لا يقع فيها من هم دونهم ذكاءً وعلمًا. ولا يكون ذلك إلا لإسرافهم في الثقة بقدرتهم على معرفة المستقبل. ولو ظلوا في حدود الدائرة التي ينيرها لهم العقل، ولو لم يحاولوا أن يتبينوا ما وراء ذلك، ما وقعوا فيما وقعوا فيه من أخطاء.

وقد يكون البسطاء أهدى من الأذكياء، ويكون ذلك لأنهم يظلون في الدائرة المنيرة التي يضيئها لهم عقلهم ولو كان نوره خافتًا.

وإذا كان علمنا بالماضي ناقصًا حتمًا، وإذا كانت قدرتنا على الإحاطة بأسباب الأحداث الماضية ناقصة حتمًا. وإذا كان تصورنا للماضي يختلف باختلاف تفكير كل منا وسابق خبرته، فكيف

يستطيع أحد أن يطمئن إلى صواب تقديره للمستقبل وهو لا يعرفه إلا قياسًا على معرفته بالماضي وهى ناقصة من غير شك .

قد يقال إن التشكيك فى قدرة العقل على معرفة الصواب يعوقنا عن اتخاذ قرارات حاسمة في أمورنا الدنيا ، وإنه يؤدي إلى الإحجام والحذر ، ولا يدعو إلى الإقدام والشجاعة ، مما قد ينتهي بنا إلى ما يشبه السلبية شبهًا كبيرًا . ثم إن الذي يثق بالعقل قد يخطئ وقد يصيب . لكن المتشكك يكون في حيرة دائمًا .

وليس هذا صحيحًا . فأنت تستطيع أن تكون شجاعًا مقدامًا في حدود ما تبصره واضحًا وضوحًا تامًا . وأنت تستطيع بعد قليل من المرانة على تحليل نفسك ورياضتها أن تعرف حدود عقلك دون عناء كبير أو تردد كثير .

٣

قدِّر للإنسان أن يعيش هذه الحياة الدنيا يكتنفه الضباب من كل جانب . له عقل يضيء ما حوله إلى مدى يختلف باختلاف نوره ولكنه على كل حال نور محدود .

وخدع الإنسان عن قوة عقله فحسبها تهيئ له الصواب دائمًا فيما يهم أن يعمله .

وهو في الواقع لا يرى من الماضي إلا أقربه إليه ولا يتبين من أسبابه إلا أبسطها . فهو يستخلص من هذا الذي يبصره قوانين مبتسرة غامضة يتأولها كما كان الناس يتأولون أقوال الكهنة . ومن

جماع هذه الأمور الغامضة يحاول أن يتبين بنور عقله ما سيحدث له في المستقبل. وهو يحسب أنه يعرف بذلك مواضع الصواب والخطأ.

وكان خيراً للإنسان لو راض نفسه على التفكير الخاص بمن يعيشون في الضباب. بقدر خطوه على حذر لا يتخطى عقبة إلا إذا أبصر ما وراءها واضحًا كأنه يراه رأي العين. وليس له أن يقدر المستقبل البعيد أبداً أو أن يبني على هذا التقدير أعماله.

ومع ذلك فستظل حياة الإنسان، مهما يكن حذراً حكيمًا عاقلاً، سلسلة من القرارات يتخذها وهو في حيرة من أمرها أصواب هي أم خطأ؟ ولا نزاع أن تقدير الغايات البعيدة وحساب المقدمات التي تؤدي إليها من أكبر مصادر أخطاء الإنسان في تدبير حياته الدنيا. والحيرة التي تعرض له عند كل قرار يتخذه ترهقه في آخر الأمر.

على أن للإنسان حياة أخرى غير حياة الضباب هذه، حياة عميقة ثابتة هي حياة النفس. حياة مشرقة جميلة، يرى معالمها كلها واضحة غاية الوضوح لا تسبب له حيرة ولا إرهاقًا.

٤

هذه هي حياة الوادي المقدس حيث كل شيء يشرق عليه نور الإيمان. فيه يجتمع المتطهرون على اختلاف نزعاتهم. وفيه ترى الحسنات يذهبن السيئات؛ لأن المجتمع الصالح يقدر الحسنات

حق قدرها. أما حياة الضباب فتطغى فيها السيئات على الحسنات. ولا أشك أنك تود أن يكون لحسناتك شأن يجعلك بها فخوراً. ولو أمام نفسك وحدها. ولا يتم لك ذلك عن يقين إلا في الوادي المقدس.

* * *

يبدأ الناس حياتهم الدنيا وهم في طريق واضحة مشرقة مستقيمة. ثم يغريهم ما يرون على جانب الطريق من أشجار عالية يرونها مثقلة بالثمار. يرون ذلك من خلال الضباب. فيخرجون عن طريقهم تدفعهم إلى ذلك رغبتهم في الاستزادة من المعرفة بها والاستمتاع بخيرها. حتى إذا جاءوها لم يجدوا فيها ما كانوا يؤملون. ويحاولون العودة إلى الطريق المستقيم والوادي المقدس وأكثرهم يضلون عنه.

وهم يعيدون بذلك خطيئة آدم. وهى خطيئة لا يكاد ينجو منها أحد من أبنائه منذ خلق الله الأرض ومن عليها.

٥

تحدثت إليك طويلاً، وعرضت عليك أموراً كثيرة تتعلق بنفسك، ولم أقف لأسأل من أنت؟ أما وقد انتهيت من هذا الحديث فأحسب أني في الواقع كنت أتحدث إلى نفسي.

على أنى أرجو أن يكون هناك من يصلح له هذا الحديث كما أظن أنه صلح لي.

رقم الإيداع ..../٢٠٠٦
الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1556 - 0